AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

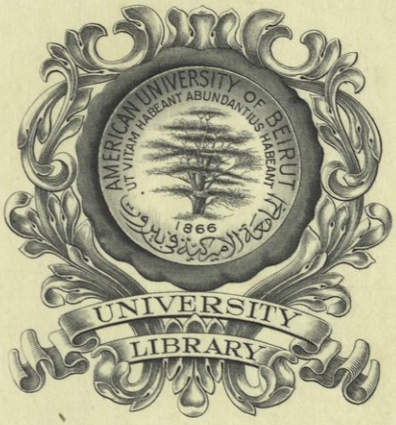

تجليد صالح الدقر
تلفون ٢٢٩٧٧

وقعت بعض الاخطاء فى هـذا الكتاب ؛ بعضها سببه سقم المسودات وتعسر [redacted] على الطابع ، وبعضه الاهمال ، وبعضه الاخر تصليح الصفاف نفسه لكلمات يجدها غريبة وقد اقتصرنا فيما يلي على الطائفة المعقـدة وتركنا الباقي لحصافة القارىء .

الصحيفة	السطر	الخطأ	الصواب
٦	٣	الالغاء	الغاء
١٣	٦	للنظرة	النظرة
١٥	٥	حرازة	حرارة
٢٢	١١	التاديب	التادب
٢٢	١٢	ياتي الجلاد	ياتيه الجلاد
٢٣	١٠	اللغة	لغة
٢٦	٦	(لا يوجد فاصل ولا عبارة انما تواصل القراءة)	
٢٨	١٠	انه	ان
٣٠	١٢و١٤	(يوضع الهامشان احدهما بدل الاخر)	
٣٨	٢	جدار	جدارا
٤٧	١٥	باد	بات
٥٥	٦	كالانهار	كالانهر
[redacted]	٤	تنكر	تنكرا
٦٧	١	بدأت محكمة	آخر بدأت محكمة
٦٩	٤	تبعثه	يبعثه
٧٠	١٨	ان نعم	اى نعم

الصحيفة	السطر	الخطأ	الصواب
٧٧	١٨	ان القول (الجلاد)	القول إن الجلاد
٧٨	٥	شيء مخز	— شيء مخز —
٧٨	١٠	السن	سن
٨٣	٤	العوبة	العربة
٨٣	٥	ذراعي بها فتركته	ذراعي فتركته
٨٦	٥	الرفاة	الرفات
٨٦	٨	عين تطرف	لا عين تطرف
٨٧	٨	متفزرة خجلي	متقززة خجلى
٨٨	٦	دان	وان
٨٩	٨	مقرر	مقررا
٩٣	٣	يقل شيء	يقل شيئا
٩٣	٦	مملا	ممل
٩٣	١٠	مخت	امحت
٩٦	٨	بضعة	بضع
٩٩	٣	لامتياز	لامتياز
١٠٤	٨	ربئية	ربيئة
١٠٨	١٤	الجوانبة	الجوانب
١١٣	٩	موتمر	موتمرا
١١٥	١٢	الديدبان	الديدان
١٢٧	٥	قص	قصل

843
H89dA

في سبيل تكوين رأي عام ضد عقوبة الموت المفروضة بالقوانين لعدم اتساقها مع ابسط المشاعر الانسانية للعالم الحديث

آخر يوم لمحكوم بالموت

LE DERNIER JOUR D'UN CONDAMNE

مقدمة

ان هذه المأساة المونودراميه(١) التي لاتضاهي لقوتها وجمالها الاروع هي من اولى روايات فكتور هوكو النثرية . انها ثورة غالدة في وجه عقوبة الموت التي تفرضها قوانين بعض البلاد وهو موضوع كان محببا الى قلب المؤلف حتى انه كان قد كتب الى جانب هذه الرواية نداءات مؤثرة بليغة اخرى .

بقيت عقوبة الموت عصورا متتاقبة وهي موضع اخذ ورد في مختلف حكومات اوربا . ففي قانون برلماني سن ايام الملك الانكليزي هنري الثاني (١١٣٣ – ١١٨٩) ذكر ان اكثر من اثني مجرم اعدموا الحياة عن جرائم سرقة واختلاس لا غير . بيد ان العدد تناقص في فترة من حكم الملكة اليزابيث الاولى (١٥٣٣ – ١٦٠٣) الى الاربعمائة ثم الى الخمسين فقط سنة ١٧٦٢ . ووجد في فترة من سنة ١٨١٦ ثمانية وخمسون محكوما بالموت . زاد عددهم الى الاربعة والسبعين ما بين سنتي ١٨١٧ – ١٨١٨ . ثمانون بالمائة منهم صدر هذا الحكم عليهم عن جرائم اخرى غير القتل .

ويلاحظ القارئ . اننا ركزنا اهتمامنا بالاحصاءات الانكليزية وهذا يعود

---

١) المونودراما : هي الرواية او التمثيلية التي يقوم بادوارها كافة شخص واحد « المترجم »

بالدرجه الاولى الى ان هـذه الدولة ما كانت تضاهيها دولة بكثرة فرضها عقوبات الموت على جرائم كثيرة . فهى أصبح مقياس يمكن اتخاذه . ما جاءت سنة ١٨٦١ الا وكانت عقوبة الموت لا تفرض قانونا على اكثر من اربع جرائم هي : «١» الخيانة العظمى «٢» القتل «٣» القرصنة مع استخدام العنف والسلاح «٤» تخريب مستودعات الاسلحة واحواض السفن العائدة للنفع العام .

ومن الجدير بالذكر ان عقوبة الموت في قانوننا البغدادي تفرض في اربع حالات كذلك «١» الخيانة العظمى «٢» القتل العمد مع سبق الاصرار «٣» التعرض لحياة الملك بقصد الايذاء او القتل «٤» بث الاراء الهدامة في اكثر من واحد من افراد القوة المسلحة .

فهي تمتاز دون سائر القوانين بانها تعاقب على بعض جرائم الفكر .

وتكاد الدول التي مازالت عقوبة الموت فيها قائمة لا تتعدى فرضها هذه النواحي والحالات الجرمية . الا قوانين بعض الولايات المتحدة الجنوبية الامريكية التي تفرض حكم الموت على الزنوج الذين يتعرضون جنسياً او يغتصبون فعلاً النساء البيضاوات (لم تفرق قوانينهم بعضها بين الزنوج والبيض في هذا المضمار) وفي اوربا لان اكثر من ثلاث عشرة دولة الغت عقوبة الموت من سائر قوانينها «وقت السلم طبعا» او هي في طريقها الى الالغاء . وقد الغتها جمهوريات الاتحاد السوفييتي الاشتراكية سنة ١٩٤٧

نهائيا بعد تجارب قضائية ودراسات علمية .

ثم ارتفعت الاصوات في انكلترا للمطالبة بالغاء عقوبة الموت واليك تطور الفكرة هناك :

في سنة ١٨٦٨ الغي تنفيذ حكم الموت علنا وكان الدكتور ولشنكتون قبلها بسنتين قد صرح في مجلس العموم بأن « . . الاثر الذى يخلفه التنفيذ العلني في النفوس هو عكس المراد منه — انه ليفسد ضمير الجمهور إفسادا . وفي رأيي انه لم ينفذ حكم بالموت علنا . الا واهدى الى الجلاد زبونا آخر . . » .

فى ١٤ من آب من هذه السنة كتبت جريدة التايمز هناك ما يلي :

« اننا لا نرجو ان نقرأ في الزمان الاتي كيف التقى في ليلة التنفيذ تحت ظل المشنقة آلاف من احط اوغاد الانكليز : من نساء سائبات ورجال شقاة عتاة لقضاء الليلة العتيدة في سكر وعربدة ومجون سافل دني . كيف صفروا للجلاد . كيف استقبلوا المحكوم بالهتاف والتهليل . كيف صاروا يرتكبون تحت اقدام المشنقة من الموبقات ما لا يقل شناعة وفظاعة عن الذنب الذي اجتمعوا ليشهدوا تكفير مقترفه عنه . يفعلون ذلك بجرية عجيبة لا تطالها يد القانون . . »

وفي اواخر عام ١٩٣٠ اصدرت لجنة التشريع الخاصة في مجلس العموم البريطاني تقريرها عن عقوبة الموت وقد اقتبست الفقرة التالية من القصص

الانكليزي الخالد جارلس ديكنز « ١٨١٢ - ١٨٧٠ » في تقبيح العقوبة :

يكتنف عقوبة الموت فتنة تجتذب اليها اخيار الناس واشرارهم على حد سواء بسبب المراسيم والمظاهر المتعلقة بها وبالاشرار الذين تنتظرهم او توقع بهم هذه المراسيم تثير اهتماما لا يستطيع مقاومة اغراء أشد الناس عزما وامتنهم خلقا » .

وختمت اللجنة كلامها قائلة :

« ان عقوبة الموت لا يمكن تعديلها بعد تنفيذها والحكم غير القابل للتدارك » لا يصدره الا قاض منزه معصوم من الخطأ وقد يحيق الظلم بالابرياء وقد توقع بهم عقوبة الموت وليس بالامكان رتق الشق فالموت لا تدارك له . »

وخلصوا الى النتيجة المحتومة وهي الغاء عقوبة الموت .

ثم طوى الموضوع في انكلترا حتى سنة ١٩٤٨ حيث اثير مجددا في مجلس العموم وصوت في احدى الجلسات حوالي ٢٠٠ نائب بالغاء عقوبة الموت الغاء موقتا مدة خمسة اعوام على ان مجلس اللوردات خذل التعديل .

وعندئذ تقدمت الحكومة باقتراح وسط يقضي بجعل جريمة القتل المعاقب عليها بالموت على درجتين . فينفذ حكم الموت على المحكوم بموجب الدرجة الاولى ويؤجل لمدة خمس سنوات للمحكوم بموجب الدرجة الثانية .

وسارت بريطانيا على ذلك . وظهرت النتائج او كادت ولا علم لنا بما انتوته

هـذه الدولة في شأن عقوبة الموت حتى كتابة السطور.

لما كانت قصتنا المترجمة فرنسية فمن الضروري ان نحيط بتاريخ بروز فكرة الغاء عقوبة الموت في البلاد التي كتبت القصة لشعبها قبل كل شعب آخر.

من الاهمية بمكان ان نذكر ان ماكسمليان روبسبير ١٧٥٨ - ١٧٩٤ زعيم الثورة الفرنسية الذي وسموا عهده بالارهاب لكثرة ما اطاحت المقصلة من رؤوس اعداء الجمهورية الفتية آنذاك. كان سنة ١٧٩٠ من اشد المتحمسين لفكرة الغاء عقوبة الموت.

وفي عام ١٨٣٠ دوى صوت الشاعر المشهور الفونس دلامارتين (١٧٩٠ - ١٨٦٩) في مجلس الشيوخ مرارا منادياً بالغائها وقد كاد ينجح في مسعاه كان ذلك في السنة التي تلت ظهور كتابنا - آخر يوم لمحكوم بالموت -.

ولقد حصل ايقاف - او الغاء - اتوماتي في امر تنفيذ احكام الموت بفترتين قصيرتين بصورة غير رسمية اولاهما في عهد مسيو فرانسوا كريني (١٨٠٧ - ١٨٩١) رئيس الجمهورية الفرنسية (١٨٧٩-١٨٨٧) الذي عرف بشدة مقته لعقوبة الموت فكان يبدل الحكم دائما بوصفه رئيس الدولة الاعلى وبدلا من حصول زيادة - ايقن بعضهم انها طبيعية - في جرائم القتل والمحكومين بالموت. وجدوا لدهشتهم حصول نقصان طفيف فيها.

أما خلال الفترة الثانية فلم يحصل ارتفاع في جرائم القتل المعتادة بل في

جرائم قتل آحاد الناس من قبل العصابات الاجرامية . ومع ذلك فان اقتراح الالغاء خذل في الجمعية العمومية بثلاثمائة وثلاثين صوتا ضد عشرين .

مهما قيل في هذا الموضوع المثير الحيوى فلا يغير من النتيجة وهى ان عقوبة الموت لا محل لها فى القرن العشرين وانها يجب ان تزول من جميع القوانين وشرائع الامم المتمدنة حيث عرفت قيمة البشر الصحيحة ولم يعد من يجادل في ان عهد العبودية وارتخاص قيم البشر قد مر وانقضى بتقدم المباديء الاجتماعية التقدمية والانظمة الاشتراكية الحديثه .

ان النتائج التي أوردنا جانباً منها فيما سبق لا توءيد ان عقوبة الموت تعطي للمجتمع حماية من القتلة والسفاكين . وان عشر سنوات من العمل في الحقل القضائي وتتبع الابحاث الخاصة بعلم الجريمة والقانون تبرر لي القول انه اذا تأملنا في طبيعة الجريمة التي تهدي لمرتكبها عقوبة الموت وفكرنا ملياً فى الظروف المحيطة بالمجرم اثناء ارتكابها وقبلها : صح لنا القول ان آخر شيء يفكر فيه القاتل قبل البطش بضحيته هو شكل العقاب الذي ينتظره جراها . ولي ان اجزم ان فكرة نوعية العقاب لن تخطر على بال القاتل ابداً وقبل ان يحتويه السجن .

فأي فائدة للمجتمع بقيت من عقوبة الموت بعد هجرانه النظرية البائدة فى العقاب نظرية « انتقام الهيئة الاجتماعية » وأخذه بالنظرية الحديثه الصحيحة التى ترى فى المجرم مريضاً او شخصاً منحرفاً انحرافاً نفسياً تجب معالجته .

وما السجن الا مستثنى لهذا الغرض ؟

أما مؤلف هذه القصة الخالدة فهو الروائي العظيم والشاعر الذى قارع الظلم وحارب البؤس أينما كانا . فقد ولد في بيزانسون سنة ١٨٠٢ وتوفي بباريس سنة ١٨٨٢ وكتب قصته هذه ولم يتجاوز السابعة والعشرين فاحدث بها ضجة في طول فرنسا وعرضها وأخذ الناس يفكرون جديا بفظاعة عقوبة الموت ومراسيمها الشنعاء .

و نترجم الكتاب الا لاجل تكوين رأي عام عراقي ضد هذه العقوبة .

الموصل : ٧-٢١/٣/٩٥٣ المحامي جرجيس فتح الله

(١)

بيسِتر BICETRE

محكوم بالموت !

خمسة اسابيع وانا احيا بهذه الفكرة ، وحيدا معها ، جامد الدم بحضورها ، رازحاً تحت عبئها ! .

فى الايام الماضية - التي بدت لي الان كسنين اكثر منها كاسابيع - كنت رجلًا كالرجال . كان كل يوم كل ساعة بل كل دقيقة ملأى بالحياة وكانت مخيلتي الخصبة الفتية مفعمة بالامال . يلذني طيها ونشرها واحدا تلو الاخر بلا وقف ولا انتهاء . ثم اعود لارى النسج الخشن الذى حيكت منه الحياة . كانت تلك الاخيلة تتوالى درُوبة كالزخارف العربية بانسجام واتساق لا نهاية له فثم فتيات يافعات يليهن اساقفة بطيالسهم الكنسية الفاخرة ثم المعارك الحربية المظفرة ثم مسارح مملوءة حياة وضياء ثم فتيات يافعات مرة اخرى ثم نزهات خلوية فى ظلام الليل الاسحم تحت غصون اشجار الكستنا المنداحة كانت اخيلتي ترسم لي اعيادا باستمرار كنت قادرا على التفكير فى كل ما يسرني لاني كنت حرا .

اما الان فانا اسير . وجسدي مقيد بالسلاسل ملقى في جب مظلم .

وفكري محكوم بخاطرة واحدة . خاطرة دموية فظيعة قاسية ! فكرة واحدة تلازمني . عقيدة واحدة . حقيقة واحدة .

محكوم بالموت ! .

مهما عملت فهذه الفكرة المخيفة معي دائما كشبح واحد يلازم شخصي شديد الحسد لي . يطردني كل الافكار الاخرى . انه يقف وجها لوجه امام نفسي التاعسة . يرهزني بيديه المتاوجتين كلما هممت بادارة رأسي او اغماض عيني . انه لينصب نفسه في كل ممر او منفذ تريد نفسي الالتجاء اليه . ويخفر كل كلمة اسمعها كحارس ثقيل الظل . انه يلازم قضبان سجني البشعة . يلاحقني في اليقظة . يتجسس علي في نومي المضطرب يزحف مولا في احلامي بشكل خنجر مرهف النصل .

ها انا ذا الان استيقظ من نومي مذعورا وهو يلاحقني فأهتف :

– آه ! انه كابوس مخيف ليس الا .

ولكن ما أكاد افتح عيني المثقلتين بالنعاس نصف فتحة الا لأرى الحقيقة المقدرة علي . مسطورة في الواقع المرعب الذي يكتنفني على ارضية محبسي الرطبة المعتمة . من خلال النور الشاحب لمصباحي الليلي . في نسيج ثيابي الخشن . في وجه السجان العبوس الذي تلمع جعبة رصاصه من خلال قضبان النافذة .

يبدو لي ان صوتا همس في اذني :

– محكوم بالموت ! .

(٢)

كان صبح يوم من ايام آب الجميلة وقد مرت ثلاثة ايام على بدء محاكمتي، لثلاثة ايام بقي اسمي وجريمتي يجتذبان جمهورا كبيرا من النظارة الذين دأبوا على تخاطف المقاعد العمومية في قاعة المحكمة كالغربان المجتمعة على جيفة. ثلاثة ايام، ومشاهد «الارجواز» هذه المؤلفة من ممثليها القضاة والشهود والمحامين وممثلي الادعاء العام، تمر وتعود تمر امامي باشكال دموية حينا ومظهر عدائي حيناً. لكنها عابسة مكفهرة مرعبة دائما لم استطع النوم اولى الليلتين بسبب القلق والرهبة لكن في الليلة الثالثة — سقطت كالصخرة نائما من فرط التعب الفكري والجسدي. تركت هيئة المحلفين في منتصف الليل تقلب وجوه الرأي في مصيري بعد ان اعادوني الى فراش القش في محبسي الحقير حيث غططت في نوم عميق نوم النسيان: كانت هذه اولى ساعات راحة بعد ايام عديدة.

كنت مستغرقا في نومي العميق عندما اقبلوا وايقظوني، لم يكن صوت الحدوة الحديدية في حذاء السجان، ولا خشخشة حزمة مفاتيحه. ولا صرير لسان القفل الخشن بكافية لايقاظي. فكان صوته الغليظ في اذني ويده الثقيلة على كتفي شيئا ضروريا ابتدرني بقوله:

- هيا قم !

فتحت عيني وجلست مشدوها مرتبكا . في تلك اللحظة سقط علي من من نافذة سجني العالية الضيقة عبر سقف الدهليز المجاور اشعاع النور الوحيد الذى تسنى لي رؤيته منذ امد طويل الانعكاس الاصفر الذي ما كان اسهل على الاعين المعتادة ظلام السجن ان ترى فيه الشمس . اني أحب الشمس .

قلت للسجان :

- ما اجمل اليوم !

تلكأ فى الجواب . كأنما يشك في هل يستأهل الموقف تبديد كلمة ؟ ثم تمتم بخشونة بعد مجهود :

- محتمل جدا .

بقيت بلا حراك . ودماغي نصف نائم لكن شفتي تبتسمان وعيناي شاخصتان الى ذلك الانعكاس الذهبي الباهت الذى ينير السقف . اعدت القول :

- ما أجمل اليوم !

اجاب السجان : « نعم » ثم اضاف : انهم « بانتظارك » .

كانت هذه الكلمات القليلة أشبه بالخيط الذي يحول دون فرار حشرة . أعادني بعنف الى عالم الواقع ووجدت نفسي باسرع من وميض البرق فى قاعة

محكمة الجنايات المقبضة بما فيها المنصة نصف الدائرية كحدود الحصان يحتلها القضاة وهم متزملون بجبهم الحمراء القرمزية . وصفوف الشهود الثلاثة بارجلهم المتبلدة والحارسان وقد احتل كل واحد منهما احدى نهايتي مقعدي . والاردية السوداء الفضفاضة وبحر من رؤوس الجموع المحتشدة المشرئبة باعناقها بآخر القاعة في الظل : وهي ترمقني بالنظر الشزر وتخزرني بالعيون الثاقبة . ثم للنظرة الثاقبة لاعضاء هيئة المحلفين الاثنى عشر الذين ظلوا ساهرين بينما كنت مستغرقا في النوم !

انتصبت على رجلي . واسناني تصطك ويداي ترتعشان وركبتاي ترتعدان ما كنت لاتبين ردائي . كبوت عند اول خطوه كمن ينوء تحت حمل ثقيل . لكني تبعت السجان .

كان الحارسان في انتظاري عند باب محبسي فوضعا القيد في معصمي وكان فيه قفل صغير قفلاه على يدي بدقة واحكام فتركتهما يفعلان ذلك كأنهما آلة يشتغلان على آلة .

اجتزنا الفناء الداخلي فانعشني نسيم الصباح النقي ورفعت رأسي الى أعلى . كانت السماء زرقاء وقد سمت اشعة الشمس الدافئة التي تعترضها المداخن العالية زوايا واسعة من الضياء على جدران السجن الصماء . فكان يوما جميلا والحق يقال .

ارتقينا الدرج الحلزوني وقطعنا دهليزا ثم آخر ثم آخر ثم وصلنا الى باب

منخفض مفتوح فهبت علي ريح ثقيلة تحمل همهمة متداخلة لاصوات عديدة هي اصوات الجمع الحاشد في محكمة الجنايات ثم انى دخلت .

ما أن بدا جسمى حتى سرت اصوات احتكاك الاذرع وهمهمة اصوات واخذت المقاعد تتحرك فجأة الى الوراء وزيقت الواح الخشب . وفي الوقت الذى كنت اقطع الغرفة الطويلة سائرا بين كتلتين من البشر وحارسين كل منهما الى جانب مني . ظهر لي اني محور شدت اليه جميع الخيوط التى جعلت هذه الوجوه الذاهلة المشوقة تتحرك . وفي تلك اللحظة احسست ان القيد لم يعد في يدى بيد اني لم اذكر اين رفع ومتى .

ساد سكون عظيم في القاعة . لقد بلغت مكاني في تلك اللحظة سكنت اصوات الجمع الحاشد ومعه انقطعت سلسلة افكارى التائهة الشريدة وعلى حين غرة ادركت بوضوح ما ظل غامضا علي حتى الساعة وهي ان اللحظة الحاسمة قد ازفت وانى جيء بى الى هذا المكان الا لسماع قرار الحكم علي .

فسرها ان استطعت ! ان الطريقة التى خطرت لى هذه الفكرة لم تسبب لي خوفا ما . كانت النوافذ مفتوحة وهواء المدينة وضجيجها يندفعان من الخارج على رسلها والقاعة مضاءة كأنما أعدت لعرس وأشعة الشمس البهيجة تتخذ هنا وهناك . أشكال صلبان مضيئة حينا فوق المناضد وحينا على الارض وتتكسر حينا عند زوايا الجدران وقد امتد شعاع شمس من

خلال الواح الزجاج مخترقا منشورا عظيما من دقائق الغبار الذهبية .

جلس القضاة في النهاية القصوى من القاعة وقد ظهرت عليهم امارات الراحة . ربما لانهم قد امضوا قرارهم . وبدا على وجه رئيس المحكمة المنور بمسحة طفيفة من انعكاس نور الشمس على النافذة . سيماء الهدوء والوداعة . وثم محام في مقتبل العمر يسوى ربطة عنقه ويحادث ببهجة وحرارة امرأة جميلة ذات قبعة حمراء كانت قد جلست خلفه دلالة على التكريم — بموجب اذن خاص .

كان المحلفون الاشخاص الوحيدين الذين بدت اوجههم صفراء ناحلة عبوسة وهذا مرده في الظاهر — الى الاعياء والكلال الذى اصابهم بعد أن سهروا الليل بطوله فكان فريق منهم يتثاءب وليس ثم على سيمائهم الوديعة ما ينم بأنهم فرغوا الان من اصدار حكم بالموت . لم أكن أتبين على أوجه هؤلاء المواطنين الا شوقا لا يحد الى النوم .

كان يقابلني شباك مفتوح على مصراعيه فاستطعت ان اسمع من الشارع خارجا ـ ضحكات بائعات الورد . لما يزل على دكة النافذة نبتة صغيرة الجرم صفراء جميلة تسبح في اشعة الشمس وتسفها الريح فتظل تحني رأسها اصدع في البناء الحجرى .

كيف يمكن لامر مشؤوم ان يقطع سلسلة مشاعر مبهجة كهذه ؟ لقد خيل لي وانا سابح في اشعة الشمس والهواء النقى انه من المستحيل علي ان

افكر في شيء خلا الحرية . انبثق في قلبي ينبوع الامل كما احتضنتني آيات يومي وروائحه من كل جانب . فصرت انتظر الحكم علي انتظاري الحرية والحياة .

أخيرا وصل محامي وكانوا في انتظاره . لقد فرغ من تناول فطور حيد بشهية عظيمة . اتخذ مكانه وانحنى علي وقال لي باسما :

ـ اني شديد الامل .

فاجبته بطلاقة باسما :

ـ وانا ايضا .

فاستطرد :

ـ الحق اني لا اعرف شيئا عن قرارهم حتى الساعة . لكنهم لاشك استبعدوا منه عامل سبق الاصرار . ولذلك فالحكم عليك لن يكون باكثر من الاشغال الشاقة المؤبدة . ماذا تقول ياسيدي ؟

فاجبت مبغوتا :

ـ ماذا تعني ياسيدي ؟ اني افضل الموت مائة مرة . أجل الموت ! فضلا عن ذلك لقد همس صوت في داخلي « ماذا اخسر لو قلت هذا ؟ » ألفظ من قبل حكم بالموت الا في منتصف الليل على ضوء الشموع في قاعة معتمة جهمة وليلة شتاء قريرة مطيرة ؟ من المستحيل ان يكون في شهر آب في الساعة الثامنة صباحا في يوم جميل كهذا مع هؤلاء المخلفين الاخيار ؟ مستحيل ! وقعت انظاري على الزهرة الجميلة الصفراء التي تلاعب اشعة الشمس .

امرني رئيس المحكمة - الذى لم يكن قد اخره الا غياب محامي - بالوقوف فرفع الجنديان ساعدي الى أعلى بحركة خاطفة . ومثلما تسري شحنة الكهرباء في البدن - نهض كل من في القاعة . ووقف شخص قمئ ينم مظهره عن خمول ذكره كان يشغل فسحة من المنضدة الموضوعة تحت مجلس القضاء - هو على ما اظن كاتب ضبط المحكمة - وبدأ يقرأ حكم هيئة المحلفين . اخذ العرق البارد يتصبب مني واستندت الى الحائط لئلا اسقط .

قال الرئيس مستفهما :

- هل لمحامي الدفاع من اسباب تمنع هذه المحكمة من اصدار الحكم ؟

كان لدي انا شخصيا - الكثير مما اريد قوله لكن لم يخرج من فمي شيء والتصق لساني بسقف حلقي ونهض محامي الدفاع .

كل ما فهمت انه حاول الفوز بتخفيف حكم هيئة المحلفين باستبدال العقوبة التى تستتبع الحكم المذكور بالاخرى التى جعلتني احنق حين اقتراحها .

لاريب وان السخط من المشاعر ذات القوى العظيمة بحيث كفل لنفسه الغلبة التامة على جميع المشاعر الاخرى التي كانت تصطرع في دماغي ، فكنت اريد ترديد العبارة التى سبق فقلتها له « الموت مائة مرة ولا هذا » .

بيد ان النطق خانني ولم استطع الا ان اوقفه فى الحال بلكزة من ذراعي هاتفا بقوة هزت كياني :

- كلا !

بدأ المدعي العام يرد على محامي مسفها رأيه، وكنت اصغي الى المناقشة براحة ورضى لا معنى لهما وبعد ذلك نهض القضاة وانسحبوا الى خلوة .

وما عتموا ان عادوا وقرأ الرئيس الحكم علي . فهتف الجمهور :

- حكم عليه بالموت ! .

وبينما كنت أساق الى السجن اندفعت الجماهير خلفي بضجيج وصخب هائل . كبناء يهوي من حالق .

سرت متخدراً مصعوقا . بدأ تغير يطرأ على باطني . كنت اشعر حتى صدور الحكم علي بالموت . بوجيب قلبي وبأنفاسي تتصاعد وبأني احيا كسائر البشر . اما الان فأرى بكل وضوح ان سدا اقيم بيني وبين العالم وان الاشياء لم تعد الان تبدو لي كما بدت قبلا .

هذه النوافذ المنيرة العظيمة . هذه الشمس الرائعة . هذه السماء الصافية . تلك الزهرة الظريفة . كلها انقلبت بيضاء مقبضة كالكفن هذا الجمع من الرجال والنسوة والاطفال الذين يتزاحمون حوالي . اني لانظرهم كما لو كانوا اشباحا .

في نهاية الدرج كانت تنتظرني عربة سوداء قذرة محكمة القضبان . وفي اللحظة التي كنت ادخلها حانت مني التفاتة الى الميدان عن غير قصد فسمعت عابري السبيل يهتفون وهم مقبلون على العربة :

- محكوم بالموت !

ومن خلال الغيوم التي بدت وكأنها حاجزت بيني وبين هذه الاشياء المحيطة بي استرعي انتباهتي فتاتان كانتا تتبعاني باعين مستطلعة مشدوهة .

قالت صغراهما وهي تصفق :

- عظيم ! سيتم الامر خلال ستة اسابيع ! .

(٣)

محكوم بالموت !

ولم لا ؟ فالناس - كما اذكر انى قرأته في كتاب ما ، لا يحوي شيئا حيدا غيره - الناس كلهم محكومون بالموت . فما الذى تغير من وضعى اذن ؟ ترى كم شخص وافته المنية وكان يتوقع اجلا طويلا مرسوما معينا ؟ كم عدد اولئك الذين ذهبوا قبلي وكانوا يتطلعون الى اليوم الذى سيسقط فيه رأسى على بلاط ساحة « كريف »(٢) منذ ان لفظ الحكم علي وهم شبان اصحاء احرار ؟ كم منهم سيموت اعتبارا من هذه الساعه وهم الان احياء يرزقون ؟ يستنشقون الهواء المعطر يدخلون ويخرجون بمرح الحرية .

ثم لماذا اريد ان ابقى حيا ؟ حقا ان هذا اليوم النحس وخبز السجن الاسود والحساء الرقيق المجاوب بجفنات المحكومين . المعاملة الخشنة (انا الذى صقلتني الثقافة ويرانى التهذيب) المعاملة الوحشية التي تضعنى خاضعا لاوامر السجانين ومغاليقهم غير واجد بشرا واحدا يرانى قمينا بكلمة واحدة . بشرا استطيع محادثته مرتعدا من كل ما اجترحته وما سيجترحه غيرى .

هذا هو كل ما في وسع الجلاد ان ينتزعه منى من النعم

آه . ومع ذلك فالامر فظيع ! .

---

٢) ان الساحة الواقعة امام « اوتيل دى فيل » في باريس المعروفة باسم كريف هي الساحة الخاصة بنصب المقصلة لتنفيذ احكام الموت على المدانين منذ سنة ١٨٠٦ فصاعدا .

- المترجم -

(٤)

أقلتني «ماريا (٣) السوداء» الى سجن «بيستر» المخيف .

كان الصرح بناء جميلا ضخما اذا أرسلت الطرف اليه من بعيد . فقد انتصب قائماً في وجه الافق على سفح تل وامتد الى مسافة طويلة . لقد أبقى الدهر على شيء من روعته وجلاله الغابر ايام كان في وقت مسكناً للملك . لكن ما ان تدن منه حتى تجد ذلك القصر فهو عبارة عن خرائب وأطلال تجرح شعورك وتكون كمثل القذى في عينك . ان العار والبلى يشفان من واجهات هذا الصرح الملوكية حتى ليخيل للمرء ان حيطانه قد ابتليت بداء البرص . لم يكن ثم شبابيك على نوافذه ولا زجاج في الشبابيك . فقد قامت محلها قضبان حديدية متشابكة يلوح منها بين الفينة والفينة وجه محكوم او مجنون شاحب معروق .

ذلكم هو وجه الحياة جديد .

---

(٣) ماريا السوداء : كناية عن المركبة التي تنقل المحكومين بالموت الى سجنهم الاخير وهي سوداء اللون . - المترجم -

(٥)

ما كدت أصل السجن حتى كبلت بالحديد وضوعفت الاحتياطات على جسمي . فلم يعد يسمح لي بتناول وجبات طعامي بالشوكة والسكين ثم البست «حناكا»(٤) كتانيا – وهو رداء خاص شبيه بالغرارة يشل حركة الايدي . انهم مسؤولون عن سلامتي . استأنفت قرار الحكم طالباً نقضه فكان والحالة هذه ان تمتد مسؤولية صيانتي – هذه المسؤولية الثقيلة – ستة أسابيع او سبعة فمن الضروري جداً ايصالي الى ساحة (كريف) سليما معافى .

عاملوني في الايام الاولى معاملة رقيقة وجدت فيها طعم العلقم . فخفاوة السجان ورعايته ورسمياته تفوح منها رائحة المقصلة وحسن الحظ . لبثت ان تغلبت الحياة الرتيبة المعتادة وتسلمت المبادأة فاختلطت بعد بضعة ايام مع المحكومين وصرت أعامل بالوحشية والفظاظة المعهودة ولم يعد اثر ما لذلك التأديب الاستثنائي الذى كان يأتي بالجلاد أمامي ولم يكن هذا التحسن الاوحد الذى طرأ على حالتي . فشبابي الغض وطاعتي لانظمة السجن واهتمام راعى

(٤) الحناك (بكسر الحاء) آلة تعذيب : تقمط على اليدين او على اليدين والعنق وقد تكون من خشب وقد تكون من قماش وتستعمل الان في بلاد المملكة العربية السعودية في ربط وشل يدي المحكوم بالموت (ينفذ هناك بجلد الرقبة بالسيف) – المترجم – .

كنيسة السجن بامرى فضلاً عن بضع كلمات لاتينية نطقتها امام رئيس السجانين -- لم يفهمها - أكسبتني رياضة السير مرة واحدة كل اسبوع مع غيرى من السجناء من دون هذا «الحناك» الذي كان يشل حركتي تماماً . واعطيت بعد طول تردد حبراً وورقاً وأقلاماً ومسرجة .

وسمح لي في كل يوم احد بعد (القداس) مباشرة بالخروج الى باحة السجن في ساعة النزهة . هناك كنت أتكلم مع السجناء وهذا طبيعي لا مناص منه وهم بعد - أناس فيهم دماثة طبع .. المساكين التاعسون ! كانوا يقصون علي وقائع جرائمهم التى لا يسع المرء إلا ان يستفظعها لكنى اعرف انهم يفاخرون بها . اطمأنوا الي فصاروا يعلموننى التكلم بالعامية التى يشيرون اليها (بوميض السندان) هذه اللغة نبتت من اللغة العامة الفصحى كثؤلول دملي او خراج كريه . على انها احيانا مؤثرة بشكل غريب . فنية الى درجة مرعبة . فمثلاً يقولون (هناك بعض عصير في الوعاء) ومعناه (يوجد دم فى الطريق) . ويقولون (الزواج من الارملة) يقصدون عملية « الشنق » كأنما حبل الجلاد هو ارملة كل مشنوق . اما رأس اللص فله اسمان : هو (السوربون) عندما يدبر الخطط وينظم خيوط الجريمة . وهو جذع (الخشب) عندما يحتزه الجلاد وتجد في اللغة احيانا رشاقة الشعر وجمال استعاراته كقولهم : (كشمير محبوك) ومعناه « سلة لاقط الخرق » وقولهم (الكذاب) كناية عن « اللسان » ويشتق في كل مكان

وزمان كلمات غريبة غامضة خشنة لا يدري المرء من اين نحتت ومتى دخلت اللغة كقولهم (تول) ويقصدون « الجلاد » وقولهم (اللافته) اي « محل التنفيذ » . ويستعملون كلمتي (عناكب وضفادع) ايضاً . من هذه اللغة التي يلوكها اللسان لا يسع المرء الا ان يفكر بشيء قذر مغبر او بربطة من الخرق البالية تنفض في وجهك . لكن هؤلاء الناس كانوا على الاقل - يعطفون علي وهم الوحيدون في هذا الصنيع . ولن اكن للسجانين والحفاظ والحراس غير المقت فهم يتكلمون عني ويضحكون علي ويقلبون وجوه الرأي في امام عيني هاتين كأني متاع من الامتعة .

(٦)

قلت لنفسي :

– ما دمت أملك أدوات الكتابة فلم لا أكتب ؟ لكن ماذا اكتب؟ انا السجين بين جدران صماء حجرية عارية باردة ليس فيها مجال للسير، ليس ثم آفق تجول فيها عيناي ! ان الوسيلة الوحيدة لتمضية اوقاتي هو اشتغال نفسي آلياً طول يومي متلهياً بمراقبة الحركة البطيئة للمربع الباهت الذي تشره ثقب المفتاح على الحائط المقابل وانا وحيد كما سبق القول ، تلازمني فكرة واحدة : فكرة الجريمة والعقاب ، فكرة القتل والموت . أهنالك ما يجدر بي قوله انا الذى نفض يده من كل شيء في هذه الحياة ؟ وما الذي سأجده في دماغي هذا الخالي وليس فيه ما يستأهل التدوين ؟

لكن لم لا ؟ ان كل ما يحيط بي مملاً مقبضاً ، أفلا يوجد في أحشائي عاصفة ، نضال ، مأساة ؟ هذه الفكرة التي استحوذت علي ولازمتني تأتيني في كل ساعة بل في كل لحظة بزي جديد يعظم بشاعة ودموية كلما مر بنا الوقت . لم لا أحاول التعبير عما يعتمل في نفسي من كل ما هو غريب مخيف ونا في وحدتي هذه ؟ الحق ان الميدان واسع للكلام والوصف . ومهما تكن حياتي قصيرة فما زال في الكرب في الرعب في العذاب الذى يملأ جوانب ساعاتي الاخيرة – الكفاية لاستخدام هذا القلم واعمال هذا

الحبر وفضلاً عن ذلك فالطريقة الوحيدة لتخفيف حدة الالام هو درسها وتدوينها وهذا ما سيجعلني اساوها . وقد لا يذهب ما اكتبه هدراً ، ما اكتبه من صحائف عذابي – ساعة بعد ساعة دقيقة تلو دقيقة شدة أثر شدة لو ملكت القوة في الاستمرار على كتابتها حتى لا يعود بامكاني جثمانيا مواصلتها . أفلا تحمل هذه القصة « التي ستظل بحكم الطبيعة ناقصة وان كانت كاملة قدر الامكان(٥) » .

قصة مشاعري – درسا جليلاً وعبرة عميقة . أليس يوجد في مدونات الافكار الاخيرة هذه في وسط الحزن المتنامي المستمر فوق المشرحة الذهنية لمحكوم بالموت الا يوجد في هذا كله اكثر من درس واحد لاولئك الذين يصدرون احكام الموت !

من يدري! ربما جعلت قصتي ايديهم تتباطأ عندما تنهض في المستقبل مسألة طرح رأس بشر مفكر . . رأس انسان ! فيما يسمونه كفه ميزان العدالة . وقد لا يفكر اولئك في الاسترسال البطيء للعذاب الكامن في الصيغة الشكلية لحكم الموت والمظاهر التي تحف به ألم يقفوا مرة ليفكروا في هذا الخاطر الاليم وهو ان في الرأس التي يحتزونها دماغا . دماغا متعطشا للحياة روحا تنفر من استقبال الموت ؟ لا لا انهم – في كل هذا – لا يرون الا سقوطا عموديا لسكين مثلثة الشفرة . كل ما يفكرون

(٥) لانه سيموت دون إكمالها . «المترجم»

فيه ان المحكوم بالموت مفلس من البداية الى النهاية . وهذه الصحائف انها لن تغشهم ولن تخدعهم . وقد تطبع في احد الايام فتجعل ضمائر هؤلاء الرجال تتفكر بضع دقائق في معنى العذاب الفكري . فهي امور ماخطرت لهم من قبل انهم يعظمون في انفسهم قوتهم القادرة على القتل بدون ألم يلحق الجسم لا بأس ربما كان الامر كذلك لكن ما قيمة العذاب الجسماني اذا قيس بالعذاب الوجداني ؟ كالبغض والحب لم بنيت الشرائع بهذه الفظاعة ؟ سيأتي ذلك اليوم وربما قدر الاعتراقات الاخيرة التي كتبها شقي عاثر الحظ ان تسرع به إلي .

... الا اذا اطارت الريح - بعيد موتي - هذه القصاصات في الفضاء . وهي مثقلة بالاوحال ممدورة بالمطر وحملتها بعيداً والصقتها كالنجوم على لوح زجاج النافذة المكسورة في غرفة السجان .

(٧)

هل قدر لما اكتبه هنا ان يكون في احد الايام ذا فائدة للاخرين .
هل سيمنع القاضي من اصدار احكام الموت فيكون له فضل انقاذ الشقاة البائسين - ابرياء كانوا ام مجرمين - من غصص الالام التي اتجرعها الان .
لكن لماذا ؟ علام ؟ ما الغاية . ماذا يهمني لو جلدوا رؤوس الاخرين بعد جلد راسي انا ؟ ايمكنني حقا التفكير في مثل هذه التوافه ؟ لنفرض انهم حطموا منصة المقصلة بعد ان ارتقيتها انا .. فماذا يعود علي هذا من فائدة ؟ إني لاسألك فأجب .

اواه . الشمس . الربيع . الحقول الموردة . الطيور وهي توقظ الفجر . الغيوم . الطبيعة . الحرية . الحياة ... هل نفضت يدي منها ؟

آه انها نفسي التي يتحتم انقاذها . اصحيح انه هذا مستحيل . وان موتي مفروغ منه وسيتم غدا صباحا او ربما اليوم اهذا صحيح ؟ آه يا إلهي . يا لها فكرة مخيفة هذه تخرج من دماغي لتصطدم بجدران السجن .

(٨)

ألا فلاحسب الوقت الباقي لي .

اعطيت بعد نطق الحكم ثلاثة ايام لرفع الاستئناف ، وهـذا الطلب يرسل الى الوزير بعد ان يترك منسياً في محكمة الجنايات زهاء ثمانية ايام فيمكث في دائرة الوزير متأخراً لدى الموظف المختص زهاء اسبوعين وهذا لا يعرف قطعا بوجوده عنده . ثم يرسل بعـد فحصه الى محكمة النقض والابرام فيضم الى غيره من الطلبات الاستينافية الاخرى وتنضد ويوضـع لها ارقام وتسجل ذلك لان المقصلة (٦) مشدودة بشريط قان وهي تشكو البطنة والتخمة واكل دوره . فيجب علي الانتظار اسبوعين .. انتظار شيء غير ميسر في النهاية .. واخيرا تلتئم محكمة النقض والابرام (نهار الاربعاء في العادة) فـترد في الحال الاستينافات العشرين دفعة واحـدة

---

(٦) الكيوتين *Guillotine* او المقصلة : سميت كذلك نسبة الى الدكتور كيوتين الذي اقترح استعمالها كأداة لتنفيذ احكام الموت على المجرمين ايام الثورة الفرنسية ـ نبلاء كانوا او عواماً (كلون من الوان المساواة فقد كانت قبلها وسائل التنفيـذ تتفاوت حسب مركز الشخص الاجتماعي) واختيرت المقصلة لان الموت بها كما يقال ـ حال سريع خال من الالم وكان بدء استعمالها رسمياً في ٦ تشرين الاول سنة ١٧٩١ . على ان وجودها كان قبل ذلك بخمسة قرون تقريباً .

وتعيدها كافة الى الوزير المختص الذي يرسلها بدوره الى المدعي العام وهذا الاخير يخطر الجلاد بما يجب عمله .

ثلاثة أيام !

وفي صباح اليوم الرابع يقول نائب المدعي العام لنفسه وهو يشد رباط عنقه :

– هذه المسألة يجب ان تنتهي .

فاذا لم يكن نائب رئيس كتاب المحكمة قد أقام مأدبة غداء لاصدقائه – وهو من قبيل الموانع – فان الامر بالتنفيذ يملى ويكتب منه نسخة طبق الاصل ويرسل . وفي اليوم التالي عند الفجر يسمع المرء في ساحة (كريف) النجار يقيم المنصة مراليا طرقاته والمنادين في الشوارع العامة يعلنون النبأ باصواتهم الخشنة .

وكل هذا يتم في ستة أسابيع

لقد أصابت الفتاة كبد الحقيقة . لا بأس عندي خمسة أسابيع او ستة على الاقل . كنت لا أجرأ على العد منذ احتواني سجن «بيستر» حتى ليبدو ان نهار الاربعاء كان قبل ثلاثة ايام !

(٩)

الان فرغت من كتابة وصيتي .

ما الفائدة ؟ انى محكوم بتأدية دين ثقيل وكل ما أملك لا يكاد يكفي لسداده والمقصلة غالية الثمن للغاية . اني أترك اما وزوجا وبنتا طفلة صغيرة عمرها ثلاث سنين حلوة عفراء رشيقة ذات عينين نجلاوين سوداوين وشعر طويل بني .

كان عمرها سنتين وشهرا واحدا حين وقع نظري عليها لاخر مرة . اذن فسيتخلف بعد موتي ثلاث نساء بلا ابن ولا زوج ولا أب .. ثاكلات ثلاث . أرامل ثلاث في نظر القانون . أقر باني أستأهل هذا القصاص لكن هاته البريئات اي جرم اقترفن ؟ ليس منهن ان يصبن بالعار والدمار فتلك هي العدالة . ليس لان امر والدتي يقلقني فهي في الرابعة والستين وقد تقضي عليها الصدمة او اذا بقي لها حتى اللحظة الاخيرة من حياتها جمرات قليلة من الفحم في مرقد حياتها وعاشت بعد بضعة أيام فلن تشكو ولن تنبس ببنت شفة .

كذلك امر زوجتي فلن يورثني امرها اي قلق .. انها تشكو الهزال والمرض منذ امد طويل وستلحق بامي هي الاخرى الا اذا اصيبت بالجنون

وفى هذه الحاله ستعيش كما يقال - لكن بدون ان يعاني فكرها ألما سينام فيكون بحكم الميت .

لكن.. بنتي.. طفلتي مارى الصغيرة المسكينة التى تضحك الان وتلعب وتغني ولا تدري شيئا .. آه هذا هو الذي يجعلني اشقى العالمين .

(١٠)

تحتوي غرفة سجني على ما يأتي :

ثمانية اقدام مربعة واربعة جدران مبنية بحجارة جصية ترتفع عموديا ابتداء من الارضيه المرصوفة بالبلاط التي تعلو قليلاً عن مستوى الممشى الخارجي . وعلى يمين الداخل فسحة تستعمل بمثابة مضجع ألقي فيها حزمة من الخيش ليأوي اليها السجين ابتغاء الراحة او النوم وهو بسرواله الكتاني وقميصه القطني الخفيف صيفا وشتاء . وناب عن السماء فوق الرأس طاقات مضلعة كثيبة المظهر يسمونها « اوكيف *Ogives* » يتدلى منها نسيج العنكبوت الشبيه بالخرق البالية لفرط غلظه . ولا شيء غير هذا يستحق الذكر خلا ان الغرفة معدومة النوافذ ، ليس فيها غير منفذ تهوية واحد . ويأتي اخيرا الباب الخشبي المصفح بالحديد .

استدرك فأقول : هناك فتحة قريبة من الجانب العلوي من الباب مساحتها تسع عقد مربعة : شباك صغير يغلقه السجان ليلاً . وثم ممشى طويل خارج الغرفة وافر الضوء فيه طاقات هوائية صغيرة قريبة من السقف للتهوية . هذا الممشى مقسم الى غرف صخرية تفضي الواحدة منها الى الاخرى بابواب مقوسة واطئة وكل جانب من هذا في سائر عرف السجن يقوم مقام غرف ملحقة بامثال غرفتي ، يمضي السجناء الذين يعاقبهم مدير السجن لمخالفة

ادارية مدة عقوبتهم فيها . وخصصت الثلاثة الاول منها للمحكومين بالموت فهي انسب للديدبان واكثر راحة لانها اقرب الى مقر الحرس .

هذه الحجرات هي كل ما تبقى من قصر بيستر العتيد . بناه في القرن الخامس عشر الكردينال ونجستر (٧) الذي أمر باحراق (جان دارك) . سمعت ذلك من الزوار الذين جاؤوا لرؤيتي ثاني يوم لقدومي . كانوا يتطلعون الي من بعيد كأني وحش معروض في قفص بعد ان اعطوا السجان مائة صولدي (٨) لادخالهم .

فاتني ذكر وجود حارس انيط به ملازمة باب غرفتي ليل نهار لا انظر من الفتحة الا وتلتقي عيناي بعينيه المحملقتين الرقيبتين دائما .

ومع كل ذلك فالمرء في هذا الصندوق الحجرى لا يسعه الا ان يتظاهر بانه يتمتع بالهواء وضوء النهار .

---

(٧) عملة فرنسية لا وجود لها الان كانت تسوى خمسة سنتيمات . فهي ١/٠٢ من الفرنك الذهب اي قرابة اربعة افلس حسب قيمة الفرنك في ذلك الحين.

(٨) جاء في معجم لاروس ان بناية بيستر رممت واصلحت سنة ١٦٣٢ لتكون قصرا يقيم فيه بانيه لويس الثالث عشر .

(١١)

كنت افكر فيما سأعمل اثناء الليل اذ ان ضوء النهار لم يلح بعد وعلى حين غرة خطرت لي فكرة . فاستويت على قدمي ورفعت مسرجتي الى الاعلى أتوضح بنورها جدران محبسي الاربعة . كانت مغطـاة بالكتابات والرسوم والاشكال الغريبة حافلة بمجموعة من الاسماء يمزج احدها الاخر حتى لكأن كل مجرم يريد انى يخلف اثراً هنا مهما كان ضئيلا . كتبت تلك الاسماء بالقلم وبالطباشير وبالفحم وبدت احرفا بيضاء وسوداء ورمادية منها ما حفر عميقاً على الصخر الاصم ومنها أحرف باهتة هناك وهنالك حتى ليظن المرء انها كتبت بالدم .

لو كنت متمتعا بصفاء فكري لزاد اهتمامي حقا بهذا الكتاب العجيب الذى أخذ يتكشف امامي صفحة بعد صفحة فوق كل صخـرة من صخور محبسي . انني لارغب في جمع هذه القطع المتنـاثرة من الافكار المدونة على الاحجار لاجد صاحب كل اسم تحت اسمه لاعطي صورة صادقة نابضة بالحياة لهذه الكتابات المندثرة والعبارات الطامسـة المفككه والكلمات الركيكه .. انها لاشبه باجسام دون رؤوس كالذين كتبوها .

فثم فوق رأسي وانا على فراشي قلبان محترقان تخترقهما نبلة تعلوهما هذه العبارة « فلتحيى مدى الحياة » .

ان الزميل المسكين لم ينعم طويلا بجميته !

والى جانب هذه الكتبة صورة شبيهة بقبعة مثلثة الزوايا تعاو وجها سيء الرسم وتحتها هذه الكلمات :

« ليحيا الامبراطور ! ١٨٢٤ »

ثم تأتي القلوب المحترقة مرة اخرى الى جانب العبارة الشائعه في السجن :

« انني أحب واعبد . ماتيو دانفان جاك »

ووجدت على الجدار المقابل اسم (بابافوان) وكان الحرف الاول منه مزخرفا مزينا بالنقوش .

ووجدت سطرين من اغنية شائعة . ثم قبعة الحرية (٩) حفرت حفراً بالغا فى الحجر وتحتها هذه العبارة :

« بوردييه - الجمهورية »

كان هذا احد نواب ضباط لاروشيل(١٠) الاربعة يا للشبان المساكين ما كان اعنف آرائهم السياسيه الخياليه ! أفي سبيل فكرة ؟ ألاجل حلم ؟ أبسبب مثل عليا هذه الحقيقة الفظيعة المسماة (مقصلة) ؟ وأنا هنا اشكو وابث انا الشقي الذى اجترح ذنبا حقيقيا وسفك دما ؟

(٩) نوع من غطاء الرأس شاع وقت الثورة الفرنسية وهو اشبه بالطرطور ولكنه يعمل من لين القماش . وعرف بهذا الاسم .

(١٠) ميناء فرنسي يقع على ساحل الاطلنطى الى الشمال .

لن استمر في تقري الحيطان اكثر من هذا . ها أرى الان فقط رسما بالطباشير الابيض في زاوية الحائط . ان المسرجة تكاد تسقط من يدي .

انى الان التي بنفسي على كومة القش بسرعة ، فيسقط رأسي على ركبتي لكن ما ان تلاشى رعبي الصبياني حتى اجتذبني فضول غريب في استيناف تقري ما كتب على الحيطان . أزلت من جهة اسم « بابافوان » نسيج عنكبوت مثقل بالغبار كبير يغطي زاوية الحائط فوجدت تحته أربعة أسماء او خمسة شديدة الوضوح وهي : دوتون ١٨١٥ بولان ١٨١٨ . جان مارتان ١٨٢١ . كاستين ١٧٢٣ . كنت أقرأ هذه الاسماء مفكرا في مصير أصحابها الاليم . فدوتون الذى قطع جسم أخيه أشلاء ونقله الى باريس ليلا فرمى الرأس في نبع والتي الجثة في ساقية . وبولان الذى ذبح امرأته . وجان مارتان الذي صرع اباه برصاصة طبنجة اثناء ما كان الشيخ يفتح نافذة وكاستين الطبيب الذى أزهق روح صديقه الحميم بالسم وكان يسقيه المزيد منه على اعتباره دواء أثناء ما كان يعوده فى مرضه الاخير . واخيرا نابافوان المجنون المخيف قاتل الاطفال الذى كان يحز رقابهم بخنجر أعده لهذا الغرض . (١١) قلت لنفسي ورجفة حمى تسري في حقوي :

— أمامك فانظر هؤلاء الذين سبقوك الى سكنى هذه الغرفة . هنا على هذه البلاطة نفضوا آخر ما فى جعبتهم من افكار . هؤلاء القتلة

(١١) هم من المجرمين الذين لمعت اسماؤهم في عالم الجريمة آنذاك .

والسفاكين . داخل هذه الجدران في هذا المربع الصغير تجاوب وقع خطاهم الاخيرة جيئة وذهابا كالوحوش الكاسرة رحلوا فحل محلهم آخرون حالا ان هذه الغرفة لا تخلو الا في القليل النادر كما يظهر . انهم ليتركون المحل دائماً وهكذا تركوه لي وسأحق بهم بدوري الى مقبرة كلامار Clamart (١٢) حيث العشب أخضر اثيث دائما !

لست بذلك المرء الخيالي او بالذي يعتقد الخرافات . ومن المحتمل جدا ان هذه الافكار سببت لي حمى . لكن ما ان تظاهر لي وكأن هذه الاسماء الرهيبة مكتوبة بسطور من نار على حائط اسود حتى بدأت دقات فظيعة ترن في اذني . وبهر ضوء احمر عيني وبدا سجني لي وكأنه مملوء بالرجال .. باغرب الرجال ، رجال يحملون رؤوسهم بيسراهم يمسكونها من المشفرين لان الرؤوس كانت خالية من الشعر ، يتهددونني بقبضاتهم ويتوعدونني الا واحدا منهم وهو قاتل ابيه .

أغمضت عيني وقد اخذ الرعب مأخذه وعندذاك بدا لي كل شيء واضحاً . حلم او خيال او حقيقة .. كنت جننت لو لم ينقذني حادث فجائي كان مجيئه في أنسب وقت . كنت أهم بالاضطجاع على ظهري عندما شعرت بشيء يدب على قدمي العارية .. جسم بارد ذي أقدام مكسوة شعرا .

(١٢) كانت مقبرة لابناء السبيل موقعها في « سان مارسيل فوبور » لكنها هدمت سنة ١٨٣٣ وشيد محلها معهد التشريح العدلي . (المترجم)

كان العنكبوت الذى أفزعته وهو يفر هاربا .

هذه الحادثة ردتني الى عالم الصواب . آه من الاخيلة الفظيعة ! لا انها اطياف . انها هذيان دماغى الاجوف المضنى . روميا مكبث(١٣) ! الموتى موتى وبصورة خاصة هؤلاء الذين قرأت أسماءهم انهم تحت أطباق الثرى . والثرى ليس بالسجن الذى يمكن الخلاص منه .

ماذا عرانى فصرت بهذه الدرجة من التخاذل والانهيار ؟ ان باب القبر لا يفتح من الداخل .

(١٣) رواية مكبث مشهورة وهى لشاكسبير والروميا المقصودة هي روميا زوجته ليدى مكبث .

(١٢)

قبل بضعة ايام شهدت أمراً في غاية البشاعة تم وقوعه قبيل انبلاج الصبح

كان السجن اذ ذاك مشحونا بالاصوات . سمعت الابواب الثقيلة تفتح وتغلق وصرير المزاليج وصليل سلاسل الحديد وخشخشة حلقات المفاتيح المدلاة من أحزمة المساجين وطقطقات الدرج تحت الاقدام الخفيفة الجرى من الاعلى الى الاسفل والنداءات والردود من اقصى الدهاليز والاقبية . وظهر في غرف السجن على أوجه جيراني المحكومين امارات حبور اكثر من المعتاد . لقد بدا سجن بيستر كله، فهو ضاحك الثغر مرتح الاعطاف .

كنت الوحيد الذى احتفظ بسكونه في وسط هذه الجلبة وظل على هدوئه فى هذا الضجيج صرت أتسمع مرهفا الاذان فمر سجان فغامرت وناديته مستفسراً : هل يوجد عيد فى السجن ؟ فأجابنى بقوله : سمه عيدا ان شئت . . فاليوم هو موعد تكبيل المحكومين بالحديد حيث انهم سيبدأون غداً سفرتهم الى تولون . . اتحب ان تراهم ؟ انه لمنظر مسل .

كان في الحقيقة منظرا بعثته محاسن الصدف لمسجون في محبس منفرد وإن كان مما تعافه النفس .

قبلت الدعوة (البهيجة) واتخذ السجان الاحتياطات الضرورية المعتادة للمحافظة على شخصي واقتادني الى غرفة صغيرة خالية ليس فيها أثاث قط لكن فيها منفذاً يصح تسميته بالشباك ارتفاعه بطول الكوع والناظر يمكن ان يتوضح منها السماء . قال لي السجان :

– دورك ، من هنا يمكنك ان تسمع وان ترى . ستكون وحيداً في مقصورتك هذه كالملك .

ثم خرج وأدار المفتاح في القفل وأحكم الرتاج وربط السلسلة .

كانت النافذة تشرف على ساحة مربعة يحيط بها بناء حجري مشمخر يعلو صعدا كالجدار الى ارتفاع ستة طوابق . لا شيء اعظم بؤسا ورثاثة وعريا من هذه الجدران الاربعة التي جعل فيها عدد كبير من النوافذ المسدودة المشبكة بالقضبان الحديدية وقد التصقت بها – من تحت الى فوق – أوجه هضيمة كالحة منهوكة صف واحدها فوق الاخر حتى أشبهت بعض حجارة من الجدار نفسه موضوعة في اطارات مشبكة ان صح التعبير . كان هؤلاء السجناء يتفرجون مثلي على الحفلة منتظرين يومهم الذي سيكونون فيه الممثلين . او انهم أرواح تقضي عقوبة المطهر (١٤) وهم في طريقهم الى جهنم كلهم يرنو بسكون الى الرحبة الخالية . كانوا يتطلعون منتظرين ومن

(١٤) المطهر هو المكان الذى يزعم بان النفس تتطهر قبل دخول الجنة . ويقابل ما يعرف « بشاطيء الاعراف » . (المترجم)

أوجههم المتبلدة كانت تلتمع هنا وهناك أعين حادة ثاقبة كأنها نقاط من نار

لم يكن بناء السجن المحيط بالباحة من جوانبها الاربعة جدار أصم لا ثغرة فيه . ففي الجانب المواجه للشرق فرجة قريبة من المركز تتصل بالقسم الاخر بواسطة درابزين حديدي يفضي الى باحة ثانية أصغر من الاولى لكنها صورة منها طبق الاصل تقوم على جوانبها الاربعة الجدران المفعمة بالكوى السوداء . وعلى مدار الباحة الرئيسية انتثرت مقاعد حجرية وفي الوسط ركز عمود من الحديد علق في نهايته مصباح .

آذن وقت الظهر ، وعلى حين غرة انفتح باب واسع كان خلف الدرج ومنه تهادت عجلة مكشوفة الى صحن السجن مجلجلة مقعقعة يخفرها درك قذرو الهيئة تبدو الرثاثة عليهم باجلى مظاهرها وباوجه خط عليها العار والدناءة أسطراً وهم مشتملون ببذلات زرقاء تطرزها شرائط وعلامات حمراء مع أنطقة جلدية صفراء . كانت هذه العجلة تسير متثاقلة على ارض الباحة وصوت رنين الحديد يسمع من باطنها . أقبلت تحمل أطواق المحكومين بالعمل في السفن مع سلاسلهم (١٥) . في تلك اللحظة هاج كل من في السجن كأنما أثارهم هذا الصوت . وأخذ المتطلعون من الشبابيك وكانوا حتى اللحظة صامتين لا يتحركون ، يطلقون صيحات الفرح والتهديد

(١٥) كان المحكومون بالاشغال الشاقة يؤخذون الى قيمان السفن ليجدفوا فيها طوال مدة محكومياتهم شأنهم في ذلك شأن العبيد في الزمن القديم . (المترجم)

وارتفعت اصواتهم بالغناء وباللعنات الممتزجة بقهقهات وضحكات تصم الاذان . كان الوضع أشبه بحفلة تنكرية للمردة والجن حيث ارتسم الحقد والشر على كل وجه وبرزت قبضات الايدى من خلال القضبان الحديدية وارتفع كل صوت بالصراخ وبرقت كل عين فعجبت كيف التمعت شرارات كثيرة من تحت هذا الرماد الخابي .

والمرء ليستطيع ان يميز من بين هذا الجمع ، بميزهم من ثيابهم النظيفة وشدة هلعهم - نماذج غريبة ممن جاؤوا من باريس ليرقبوا السجانين وهم في عملهم هذا دائبون بكل جد وهدوء .

رقي احد السجانين العجلة وقذف بالسلاسل - ياقات السفر - الى رفاقه ثم أشفعها بسراويل كتانية محزومة . واقتسموا العمل فيما بينهم : ففرقة اخذت السلاسل الطويلة المرموز اليها بلغتهم الخاصة باسم - خيوط الحرير - الى احد اركان الباحة حيث مدتها على ارضها . ونشرت الفرقة الثانية السراويل والقمصان - اي التفتة ! بلغتهم - على طول الرصيف . بينما اخذ الاذكياء من السجانين باشراف رئيسهم - وهو رجل صغير الجرم كبير العمر متين الالواح - يختبرون صلاح الياقات اى الاطواق الحديدية واحده بعد الاخرى ويتأكدون من صلابتها بضربها فوق الصخر . حدث كل هذا وسط هتافات السجناء وسخريتهم . لم يكن يغلب على ضجيجهم الا تلكم القهقهات الراعدة الصادرة من المحكومين الذين اقيم لهم هذا

الاحتفال والذين يسهل على المرء ان يتبين انهم حشدوا خلف نوافذ السجن القديم المطل على الباحة الصغرى .

عندما كملت الاستعدادات أعطي سيد ذو جدائل فضية على نهايتي كتفيه يدعى المفتش اوامره الى محافظ السجن وما هي الا لحظة حتى فتحت ثلاثة أبواب واطلقت من جوفها الى الباحة كتلا من الرجال كسحب دخان رجال منظرهم يدمي القلب باطمارهم وهم يضجون صارخين . . . هؤلاء هم المحكومون . تضاعف التهليل واشتد الترحيب بهم من الشبابيك الساعة التي دخلوا الباحة . احتفى مشاهير المحكومين بهذه التحايا المنثالة وتقبلوها بكبرياء متواضعة . كان أغلبهم يضع على رأسه قبعات من الخوص من مختلف الاشكال والازياء نسجوها في غرفهم وكلها غريبة الشكل اذ قصدهم منها ان يجتذبوا الانظار في المدن التي يمرون بها وقد ظفر هؤلاء أصحاب القبعات بالقسط الاوفى من الاستحسان واحد منهم بصورة خاصة اثار اشد الحماسة . كان فتى في السابعة عشرة من العمر . وجهه يشبه وجه فتاة غضة الاهاب . خرج من غرفة سجنه التي ظل لا يبرحها اسبوعاً كاملا . وهو عاكف على نسج بتية سابغة أخفت جسمه من قمة رأسه حتى أخمص قدميه من كومة القش التي اعطيت له لتكون فراشا . فبرز بها الى الساحة يتدحرج ويتدحرج على الارض كما تتلوى الافعى . كان هذا الفتى ممثلا هزلياً وقد حكم عليه بالسجن لسرقة كان تصفيق يصم

الاذان وزعيق يقلقل الجبال أجاب عليه المحكومون بالتجديف بمثله . لم يكن مزعجاً أمر تبادل هتاف السرور بين محكومي الحاضر ومرشحي المستقبل لم يكن ثم وزن أو مقام للجمع المؤلف من السجانين والزائرين الذاهلين حيث الجريمة تضحك وتهزأ بصورة علنية فتقلب العقوبة الصارمة الى عيد خصوصي من أعياد العائلات .

كانوا أثناء دخولهم - يدفعون بين صفين من الدرك خلال الباب الحديدي المفضي الى الباحة الصغرى حيث ينتظرون الاطباء هناك كانوا يقومون بالمحاولة الاخيرة للتملص من السفر مختلقين شتى المعاذير لصحتهم المتردية وأعينهم الرمد وأرجلهم العرجاء وأيديهم المكلومة . لكن يتضح عند الكشف الطبي ان صحتهم جيدة تؤهلهم للاشغال الشاقة وعندئذ يستسلم كل منهم الى نصيبه المحتوم راضخاً ، ناسياً ببضعة دقائق عاهته المزعومة الى آخر ساعة من ساعات حياته .

ويعود فيفتح الباب الحديدي ويقوم الدركي بمناداة كل محكوم باسمه على ترتيب الحروف الابجدية فيقبل المحكوم نحو الزاوية ويصطف الى جنب زميل تفق ان كان الحرف الاول من اسمه يليه في الترتيب ، وهكذا يجد كل رجل نفسه صفراً لا غير كل واحد يقيد بسلسلته الخاصة الى جنب شخص غريب عنه فاذا اتفق ان كان المحكوم صديق ، فالسلسلة تفرق ما بينهما وهذا لعمري أعظم قصاص .

اوصد الباب الحديدى بعدما خرج منه حوالي الثلاثين . وأخذ حارس مستعينا بعصاه يصف المحكومين على هيئة النسق . ثم طرح أمام كل واحد منهم سترة وسروالا من الكتان الخشن . فبدأوا في نزع ما عليهم من اطمار . وهنا حصل أمر غير منتظر قلب ذلتهم وعارهم الى عذاب وتباريح . كان الجو حتى تلك اللحظة رائقا صاحيا وريح الشمال الصرصر تشيع البرودة في الهواء . وكان ينفرج هنا وهناك من بين طبقة الغيوم السوداء الطخياء كوى ينفذ منها وجه الشمس . لكن ما كاد المحكومون يتعرون تماماً ويلقون عن جسومهم خرق السجن ليقفوا عراة كما ولدتهم امهاتهم بسبب التفتيش الدقيق الذي يجريه عليهم السجانون كما كادوا يقفون هكذا أمام أنظار الغرباء الذين استداروا ونكصوا على أعقابهم حياء . وأخذوا يتطاعون الى ظهور المحكومين ، حتى اكفهرت السماء . فجأة وهبت ريح خريف كأنها السياط اللافحة ، وأخذ المطر يهطل بغزارة على الارض وعلى رؤوس المحكومين الحليقة العارية وعلى ثيابهم الوثة الملقاة جانباً . وباسرع من غمض العين خلت الساحة ممن ليس محكوما او دركيا واحتمى العيارون والفضوليون القادمون من باريس بامتاب الابواب وأطنافها وكان المطر رغم ذلك - ينثال من عل كأنما ينصب من أفواه القرب . ولم يبق في الساحة الواسعة غير المحكومين العراة والسيول وهي تمور على الارصفة المغمورة بالماء . وحل صمت مهيب محل صياح الفخر والتبجح . كان المحكومون

يرتعدون - أسنانهم تقضقض وسيقانهم ترتعش ، وركبهم تصطك كان منظرهم مؤلماً وهم يسترون أعضاء جسومهم المزرقة برداً بقمصانهم المبتلة وصدرهم (١٦) وسراويلهم وهي تشخب ماء . ان العرى خير لهم من ذلك .

ظل واحد من المحكومين وهو شيخ بلغ أرذل العمر - محتفظا بمرحه فهتف وهو يجفف جسمه بقميصه المبتل :

لم يكن هذا من ضمن المنهاج ! ثم انفجر ضاحكا وهو يهدد السماء بقبضته .

بعد ان لبسوا ثياب السفر . اقتيدوا جماعات من عشرين او ثلاثين - الى ركن آخر من الساحة حيث السلاسل الممدودة على الارض بانتظارهم . كانت متينة طويلة تعترض الواحدة منها سلاسل فرعية قصيرة مربوطة بالسلسلة الرئيسية على كل مسافة قدمين . وكان يوجد في نهاية كل سلسلة فرعية ، طوق حديدي مربع الشكل يفك بواسطة مفصل ويسمر على عنق المحكوم بمسمار حديدي فيحيط بالعنق طوال الرحلة . هذه السلاسل قريبة الشبه بهيكل عظمي لسمكة - حين تمد على الارض .

أمر المحكومون بالجلوس فوق الاوحال ووضعت الاطواق في أعناقهم ثم اقبل من السجن حدادان يحملان سندانين فسمرا الاطواق في الاعناق بان اهويا عليها بضربات عنيفة من مطرقتيهما فوق البرشام (١٧) دون ان

---

١٦) مفردها صدار بكسر الصاد وهو ثوب قصير يلي السترة ويستر الصدر

١٧) تلفظ عندنا البرجيم ، بالجيم المعجمة

يتكلفوا عناء وضعها في النار . كانت لحظة رهيبة ارتجف لها فرقا اعتى المجرمين واصلبهم عودا . كل ضربة سندان تستقر على سطحه تجعل ذقن الرجل المطوقة عنقه يهتز ويرتج وكانت أصغر حركة منه الى الامام أو الى الوراء كفيلة بفلق جمجمته وتطاير عظامها كما تتطاير قشرة الجوزة .

بعد هذه العملية ، ران الهدوء على المحكومين ولم يعد يسمع غير صليل السلاسل او صيحة بين الفينة والفينة أو صوت محكوم يأبى الاستكانة . وكان منهم من بكى ، أو المتقدمون في السن فكانوا يرتجفون ويعضون على شفاههم . نظرت من زاوية جانبية الى هذه الوجوه الشريرة وهي ترسف في أطواقها الحديدية فتملكني رعب قاتل

زيارة الاطباء دور تفتيش الحراس . ثم أخيراً تثبيت الاطواق الحديدية فصل لعمرك فيه مشاهد ثلاثة !

عادت الشمس الى الظهور بدت فكأنها أشعلت النار في رؤوس المحكومين . فهبوا معا هبة رجل واحد والتحمت السلاسل الطويلة الخمسة بعضها ببعض والفت حلقة عظيمة حول عمود النور . تعبت عيناي من كثرة مراقبتي دورانهم . صاروا يغنون أغنية سجن : قصة شعرية عامية بنبرة شجية صاخبة مفرحة كان يسمع بين حين وآخر صرخات حادة . وقهقهات لاهثة تمزق القلوب ، ممتزجة باهات مكتومة ، ثم هتاف جنوني .

وكانت خشخشة السلاسل الحديدية الرتيبة شبيهة بجوق موسيقى جعل لمصاحبة تلك الاغنية بالذات . لو حاولت ايجاد صورة لجمعية من الشياطين لما سألت خيرا من هذه الصورة أو . . شرا .

جيء بجفنة كبيرة الى الباحة ، وانهمك السجان رقص المحكومين بضربات من هراوته . اقتربوا الى حيث وضعت الجفنة . لا أدري ما نوع الخضراوات التي كانت تسبح فيها . لا أري أي سائل قذر كان يتبخر ويتصاعد منها . على كل فقد أكلوه وبعد ان شبعوا رموا بالباقي من الحساء والخبز الاسود على الارض واستأنفوا الغناء والرقص مرة اخرى . الظاهر ان ادارة السجن كانت تسمح لهم بهذه الحرية الممتازة هذا اليوم والليلة التي تليه .

راقبت هذا المشهد الغريب بفضول نهم وقلق متلهف حتى اني نسيت باواي تماماً وهزني شعور بالشفقة عميق نفذ الى شغاف قلبي لقد أبكتني ضحكاتهم !

وعلى حين غرة وفي غمرة شرودي الذهني ، شاهدت حلقة المحكومين النابحة الصارخة تقف على الاقدام وتستدير وقد ران عليها الصمت المهيب . ثم دارت الاعين دفعة واحدة الى النافذة التي كنت أسترق منها النظر . وصاحوا كلهم صيحة رجل واحد مشيرين إلي باصابعهم :

هو ذا المحكوم بالموت ! هو ذا المحكوم بالموت !

وتضاعفت صرخات جذلهم .

بقيت مشاولا .

لم أدر كيف عرفوني وكيف استدلوا علي ولم يروني من قبل . تنادوا وهم يضحكون ضحكات صفراء مكشرة :

- صباح الخير ! مساء الخير !

واحد منهم ، كان محكوما بالاشغال الشاقة المؤبدة ، في مقتبل العمر ، كان وضاح الجبين ، محتقن الوجه - رمقني بنظر حسد وقال (يقصدني) :

- انه لسعيد الحظ ! انه « سيفصل » ! فني أمان الله أيها الزميل !

يتعذر علي تفسير ما جال في خاطري انني لزميل لهم حقا ، فساحة كيف هي اخت « طولون » ثم اني أتعس منهم درجة ، لذلك يكرمونني . شاعت في رعشة . أجل أنا زميلهم وبعد أيام قلائل ، سيجعل مني مشهدا مسليا لهم .

بقيت قريباً من النافذة مشاولا مصعوقا واهنا . وعندما رأيت السلاسل الخمس الممدودة تتحرك الى الامام بقوة شيطانية ، عندما سمعت رنين سلاسلهم المجلجل وصيحاتهم ووقع خطاهم في أسس الجدار ، توهمت ان عسكرا مجرما من الشياطين يهمون بتسلق الحائط واقتحام غرفة سجني الحقيرة . فصرخت وألقيت نفسي على الباب بقوة كافية لكسره لكن لا سبيل الى الفرار . كانت المزاليج محكمة الوضع من الخارج . ناضلت .

صرخت وقد جن غيظي . خيل لي اني أسمع صرخات المحكومين الرهيبة تدنو شيئا فشيئا . خيل لي اني أرى رؤوسهم البشعة تطل من قضبان نافذتي . أطلقت صرخة اخرى أليمة وسقطت مغشيا علي .

كان الليل قد عسعس عندما عدت الى هوايي . وجدت نفسي على فراش المرض . وعلى ضوء مصباح كأن يتأرجح في فضاء القاعة متدليا من السقف تبينت اسرة المرضى وقد انتظمت صفا واحدا عن الجانبين . ظهر لي انى نقلت الى المستشفى . بقيت مستيقظا بضع دقائق ، وكان رأسي خاليا من اي فكرة او خاطرة خلا الشعور السار لشخص مضجع على سرير الحق يقال ان سرير المستشفى هذا ، بل السجن نفسه كان كفيلا بان يجعلني ارتعد عارا واشمئزازا ، لكني لم اعد الان ذلك الشخص السابق . كانت اغطية السرير السمراء خشنة الملمس ، واللحاف خفيفا مملوءا بالثقوب انى لاتحسس حشية القش تحت النضيدة .. لا بأس بهذا ! في وسعي ان امد اعضائي بين هذه الاغطية الخشنة ، يا فرحتي يا جذلي ..

شعرت (وانا تحت اللحاف الرقيق) بان ذلك البرد القارس المتلف الذي كان قد تسلل الى نخاع عظامي حتى الفته — باد يختفي ثم ... ادركني النوم ثانية .

ايقظني ضجيج عال صادر من الخارج وكان الوقت فجرا ، وفراشي قريباً من النافذة ، فجلست لاتبين مصدره .

كانت النافذة تشرف على الباحة الواسعة لسجن (بيسيتر) التي عجت آنذاك بالناس . هناك صفان من الجنود كانوا يحاولون جهدهم للمحافظة على فرجة ضيقة في وسط هذا الجمع وبين ذينك الصفين من الجند . ما عتمت ان اقبلت خمس عربات ثقيل محمولة رجالا تتهادى ببطء وتهتز كلما اصطدمت عجلاتها بصفاة نافرة من الصفا التي رصفت به دكة الطريق : انهم المحكومون يرحلون .

كانت عربات النقل مكشوفة الغطاء . احتلت كل مجموعة من المحكومين مربوطة بسلسلة واحدة ، عربة وتم اجلاس هؤلاء جنبا الى جنب على كل طرف متلاصقين ، تفصلهم السلسلة المشتركة التي كانت ممتدة ومستقرة في قاع العربة وقد وضع حارس واقف قدمه ، على نهايتها وبيده بندقية محشوة . ان المرء ليسمع رنين السلاسل واضحا ، وان يرى رءوس المحكومين تتمايل وسيقانهم المتدليات تتأرجح .

كان المطر يهطل مدراراً في قطرات دقيقة فيجعل الجو بارداً قارس البرد . التصقت سراويل المحكومين الكتانية المبتلة بركبهم ، فاسود لونها الاسمر ، وأخذت لحاهم الطويلة وشعور رؤوسهم تقطر ماء ، واحتقنت وجوههم واشتد احمرارها حتى كان من السهل على المرء ان يتبين انهم يرتعشون برداً وان أسنانهم تصطك حنقاً وبرداً والانكي من كل هذا انهم ما كانوا يطيقون حركة ، مايسمر الطوق

في عنق واحدهم حتى يصير جزءا مكملا من هذا الشيء الفظيع المسمى بالسلسلة المتحركة كرجل واحد . ألا فليمت الفكر ! فالنير الذي يطوق رقبة السجين يحكم على الفكر بالموت ، فلا يعود المحكوم اكثر من حيوان لا يحتاج الى اكثر من ان يجوع في اوقات معينة . تراهم مسمرين في اماكنهم بهذه الحالة ، اغلبهم نصف عراة ، رؤوسهم حاسرة ، ارجلهم متدلية ، يغذون السير في مسيرتهم هذه ذات الايام الخمسة والعشرين ، في العربات نفسها ، وبثياب متشابهة . في هجير شمس تموز المحرق وبرد امطار تشرين الثاني . . ان المرء ليجرأ على القول بان الواحد منهم ليود أن يستصرخ السماوات العلى طالباً الرحمة تجيئه بشخص الجلاد !

لا أدري أي محاورة فظيعة كانت تدور بين جمهور النظارة وبين راكبي العربات . اهانات من جانب ، يقابلها غطرسة وانفة من الجانب الاخر ، ثم شتائم من كلا الجانبين !

وباشارة من الضابط ، شاهدت المراوات تنثال كالمطر على الاكتاف والرؤوس اعتباطا ، فاتخذ الكل المظهر الخارجي للسكون الذي نسميه النظام . لكن العيون كانت طافحة بالحقد والضغينة . ثم تقبضت أيدي هؤلاء التاعسين على ركبهم ايذانا بانتهاء كل شيء .

اختفت العربات الخمس ، الواحدة بعد الاخرى مارة من تحت الطاق العالي لباب « بيسيتر » ، يحرسها الفرسان والمشاة . ثم لحقت بالموكب

عربة سادسة ترن بداخلها القصاع والاباريق ومختلف السلاسل ، وجرى على أعقابهم عدد من الحرس كانوا قد تأخروا بعض الشيء في المقصف وهم يتراكضون للحاق بالركب . وأخذ جمهور المتفرجين يتفرق واختفى المنظر كله كأنه طيف من الاطياف . بقيت أسمع هدير العجلات الثقيلة يضمحل تدريجا مع وقع سنابك الخيل وهي تخب مبتعدة ، على الجادة الوعرة المرصوفة المؤدية الى فونتنبلو ، كذلك اختفت قرقعة السياط ورنين السلاسل وصياح الناس وهم يتمنون للمحكومين سفرة تاعسة . انها البداية بالنسبة لهم !

ماذا قال لي المحامي ؟

« الاشغال الشاقة المؤبدة ؟ »

آه أجل ، حبذا الموت الف مرة . المقصلة خير من السجن . العدم ولا جهنم . انه لخير لعنق ان يعنو لشفرة المقصلة من ان يخنع لطوق المحكومين ! الاشغال الشاقة في أحواض السفن ! رحماك أيتها السموات !

(١٣)

لم أكن مريضاً لسوء حظي . ففي اليوم التالي غادرت المستشفى واحتوتني غرفتي مرة اخرى . لا ، لست مريضاً . اني في الواقع صغير السن صحيح الجسم قوي البنية . الدم يجري في عروقي حراً مسرعاً وأعضائي جميعها تستجيب الى كل خطرة ينبض بها فكري . اني قوي جسماً وعقلاً وتركيبي الجسماني موقوف على حياة طويلة . أجل هذا صحيح ، ومع ذلك فانا مريض بداء عضال داء من عمل البشر .

منذ ان غادرت المستشفى وضميري تلازمه فكرة قاسية ، فكرة أسلمتني الى الجنون وهي احتمال الفرار لو بقيت في المستشفى . خيل لي اني اثرت اهتمام الاطباء والممرضات . ان أموت شاباً في مثل هذا العمر ؟ ميتة كهذه ؟ خيل لي انهم يشفقون علي . لقد كانوا يحسدون بسريري متشوقين متلهفين - بل بفضول وحب استطلاع ، الا تبا لهم .

الا فكر في ان هؤلاء قادرون على شفائك ، على شفائك بكل سهولة من الحمى لا من حكم الموت ومع ذلك فقد يكون هذا الشيء سهلاً عندهم ايضاً . باب مفتوح ! ألا يتكفل هذا باتمام الامر ؟ لا ، لا رجاء من بعد الان ، سيرفض استئنافي ، فكل شيء جرى بانتظام وترتيب ، ولقد كان في شهادات الشهود أكثر من الكفاية . كذلك الامر من محامي فانه قدم

دفاعاً مجيداً على قدر المستطاع .

... والحكام انهم الاخرون أصدروا قرارا صحيحا عادلا . لا يمكن الاعتماد على شيء ما سوى ... طبعا ... لا الجنون ؟ لا أمل فيه . الاستيناف ؟ انه حبل شددت به وانت تتأرجح فوق الهاوية ، والحبل يكاد ينبت في كل لحظة حتى ينبت فعلًا . كأنما يقتضي لسقوط سكين المقصلة على الرأس نحوا من ستة أسابيع .

آه لو نلت عفوا ؟ أي ضير لو نلت عفوا ؟ بشفاعة من ؟ لاي سبب ؟ لماذا ؟

اما انهم لا يمنحوني عفوا ، فذلك أمر مفروغ منه ، لكني أذكر ذلك على سبيل التمني كما يقال : لم يبق لي الا ان اخطر ثلاثا :

بيسيتر الكونسيرجي لاكريف

(١٤)

قضيت ساعاتي في المستشفى جالساً قرب النافذة أنعم باشعة الشمس، التي عادت الى الظهور، او قل اني نلت كل الاشعة التي استطاعت ان تزحف من خلال قضبان النافذة .

لبثت هناك ورأسي مدفون بين راحتي اللتين ناءتا بحمل أكثر ما تطيقان حمله منه . اسندت سرفتي على ركبتي، وأرحت قدمي على عوارض الكرسي .

ان الغشية جعلتني عاجزا منهوك القوى . فقد تقفع جسمي وتكور كأنما لم يعد في أوصالي عظام أو في عضلاتي لحم . وأخذ جو السجن العفن يضايقني أكثر من ذي قبل . ولازم اذني دوي السلاسل وصليلها . في هذا السجن شعرت بملل غلاب . حبذا لو من الله الرحيم علي بطير صغير ليغرد هناك فوق افريز السطح على الاقل . أهو الرحمن الذى سمع صلاتي ام الشيطان ؟ الحق لست أدري، لكني سمعت في تلك اللحظة صوتا تحت نافذتي، لم يكن تغريد طير، بل كان خيرا منه . انه صوت رائق منعش ناعم لفتاة في ربيعها الخامس عشر . نصبت رأسي في الحال . أصغيت بشوق واهتمام الى الاغنية (١٨) . كانت شجية ناعمة، انها مرثية حزينة صادرة عن قلب مكلوم واليك نص الاقفال كما اتخطرها :

١٨) اورد المؤلف هذه الاغنية بالعامية الفرنسية

كانوا ثلاثة شرطة اجلاف اواه
في درب « ميل » عقبوا اخفافي ويلاه
حتى اذا وصلوا الى أطرافي أنا الشقي العاثر

* * *

لست أدري أي شعور حزين ، استولى علي ، استمر الصوت منشداً :

* * *

حتى اذا وصلوا الى اطرافي اواه
شدوا وثاقي جرجروني مرغماً ويلاه
والسجن ألمق دون وجهي مجرما ويلاه
وأتوا « بيدوني » يخيف الارقما وانه جاسوسهم

* * *

فعلا صراخي في طلاب النجدة رباه !
واذا بلص من شقاة محلتي يجيبني :
« لبيك » قلت : « لك الفداء بمهجتي ، اسرع إلي .. آه

* * *

اسرع الى زوجي فخبرها بما
فعلوا ، وأغفل ما تراه مؤلما
اني أراك جراح قلبي بلسما اواه ويلاه

في السجن كيف عصرت عصرا احمرا » اواه
قالت « اذن قد جاء امرا منكرا ؟ » ويلاه !
وأتت إلي وقـد احست ما جرى تقول وهي تبكي :

* * *

« ما الخطب » ؟ قلت : تجملي وتصبري
باوطة ، عرقت بضربة خنجري
ودماؤها سالت ولا كالانهر — وا شقوتاه —

* * *

.. ثم اقتحمت على القتيل المخدعا كانذل اللصوص
وسلبت ساعته وما قد جمعا ، من مال
فتداركي خطبا جليلا مفزعا » ويلاه !

* * *

راحت الى « فرساي » ترجو ربه مستعطفة
ان يستجيب لها ويغفر ذنبه
وتضرعت كيلا يقرر صلبه

* * *

لو حقق الملك الهمام مرامها
وأنالها حريتي وزمامها

لقضيت عمرى لاثماً اقدامها كالعبد

* * *

وكسوتها من اروع الاثواب
ثوبها تتيه به على الاتراب
ونقشت نعليها بزهر الغاب

* * *

لكن عاهلنا الجليل الاعظما تبأ له
ثارت عقاربه فارغى مقسما باغلظ الاقسام :
« سأدقه دقاً واحتلب الدما

* * *

سأدقه دقاً واحتلب الدما
وله سأنصب فى الفضاء منصة
بين السما والارض يرقص رقصة حتى يكون
احدوثة للمجرمين .. وقصة ..

* * *

ثم اني ما عدت اسمع شيئا ولم اكن راغبا في سماع شيء . ان هذه المعاني نصف المقنعة للامرئية المفجعة نضال اللص مع الشرطة - صديقه العيار الذي القيه فارسله الى زوجه بتلك الرسالة المؤلمة « لقد قتلت رجلا فالقى القبض علي (عرقت شجرة باوط وانا في غياهب السجن) » . ثم الزوجة وهي تسرع الى «فرساي» بزحمتها . ثم «جلالته» الذي اجتاحه الغضب العظيم ، فصار يهدد مقسما بانه سيجعل الجاني (يرقص حيث لا توجد ارض يضع عليها قدميه) . هذا كله انشدته بلحن رائع وصوت جميل اخاذ لا مقطع فيه الا وتطرب الاذن له .

كنت كسير القلب ، مشلولا ، مغلوبا على امري . هذه الكلمات الفاضحة الشنعاء وهي خارجة من شفتين غضتين ورديتين شيء مخيف فظيع . ما اشبهها بالوسخ الذي تخلفه (حشرة البزاقة) فوق الوردة ! .

لا ادرى كيف اعبر عن الشعور الذي خالجني . اني جرحت ، وفي الوقت نفسه اوذيت . لغة السفلة ، لسان الاوباش الغريب ، لغة غريبة كهذه تقطر نجيعا . الكلمة قبيحة تجري على فم فتاة يافعة ، في صوتها مزيج رائع من جرس الطفولة والانوثة الناضجة . كل كلمة من هذه الكلمات الغليظة والتعابير المخجلة تتسارق منغومة ملفوظة باحلى وأدق ما يمكن .

آه اي محل قذر هذا السجن ؟ ان فيه لما يؤثر على كل من في داخله وحواليه فيفسد كل شيء ، يفسد حتى غناء يافعة في الخامسة عشرة من العمر . ان وجدت طيرا فيه فمن الاكيد ان على احد جناحيه غبارا . ان قطفت وردة جميلة يانعة وشممتها فلا شك انك واجد فيها رائحة كريهة .

(١٥)

آه لو تسنى لي الفرار ، كيف ساعدو في ارجاء الحقول أكلا ، اني ان اركض ، فهذا مما يثير حولي الشك ، بالعكس ، يجب ان اسير الهوينا وهامتي مرفوعة في الهواء وأنا أغني . يجب ان أعمل جاهدا للحصول على « بتية » زرقاء مطرزة بالاحمر ، فسيكون هذا تنكر لا نظير له ، فكل القرويين في الجوار يلبسون هذا الرداء اعرف محلا لا يبعد عن (اركول) كثيراً ، مجموعة من الاشجار على حافة مستنقع كنت اعتدت الذهاب اليه مع اصدقائي ايام الصبا وأنا تلميذ في المدرسة لاصطاد الضفادع كل خميس . يجب علي ان اخفي نفسي هناك حتى الغسق . وعندما يعسعس الليل ، علي ان اواصل رحلتي فأتوجه الى « فنسين » . كلا فسيعترض النهر سبيل فرارى ، ساتجه الى « أرباجون » فهي أفضل لي لمواصلة سيري منها الى « سان جرمان » ومنها الى الهافر حيث استقل قاربا الى انكلترا . . . ما لفائدة من هذا ؟ سأصل الى « لونجوبو » . سيعترضني شرطي فيسأل عن جواز سفري . . . وهنا الطامة الكبرى ! واه لي من بائس يحلم ، عليك اولا ان تنقب حائطا سمكه ثلاثة اقدام يسد عليك سبل الهرب ! الموت ! الموت ! عندما اذكر لنفسي انى جئت هنا الى بيستر طفلا لارى ابارا عميقة واتفرج على المجانين ! .

(١٦)

بينما اكتب هذا ، تهافت نور مصباحي واقبل ضوء النهار واعلنت ساعة الكنيسة السادسة صباحا . ماذا تراه يريد ان يقول لي ؟ دخل السجان غرفتي وحياني برفع قبعته معتذرا عن اقلاقه راحتي ، وسألني بلهجة رقيقة على قدر ما يسمح له صوته الخشن -- ماذا اختار للفطور ؟ .. وهذا ما أشاع الرعدة فى بدني . اذن سيكرن اليوم ؟ .

(١٧)

سيكون اليوم ! .

لقد جاء مدير السجن نفسه يزورني . سألني : هل من خدمة يقدمها لي ؟ هل ثم ما يستطيع عمله لي ؟ راجيا الاشكوى لدي على احد من مرؤوسيه مؤملا ان أكون بخير صحة مستفسرا كيف قضيت ليلتي . وناداني بياسيدى عندما ودعني مستأذنا . سيكون هذا اليوم !

(١٨)

لا يظن مدير السجن بان لدي من الاسباب ما يحملني على الشكوى منه او من معاونيه . الحق بجانبه سيكون غلطة مني ان اشكو ، فقد قاموا بواجبهم ، واحاطوني بالرعاية واسباب الحيطة ، فضلا عن انهم كانوا مؤدبين معي عندما حللت في سجنهم ، والان وأنا في طريقي الى العودة ، لم لا اكون راضيا ؟ .

هذا السجان الطيب ، بابتسامته اللطيفة ، بكلماته الرقيقة ، بعينه الحانية ذات النظر الحديد والرقابة الدقيقة ، بيديه الكبيرتين الخشنتين ، إن هو الا السجن مجسما ، انه « بيسيتر » بجسم انسان أرى السجن في كل ما يكتنفني ، أرى السجن في كل هيولى ، أراه في صورة انسان ، في شباك في رتاج باب . هذا الجدار نفسه هو السجن بشكل حجارة ، هذا الباب هو السجن بشكل خشب ، هؤلاء السجانون هم السجن بلحم وعظم ان السجن الكائن مرعب كائن ظاهر الكمال والتمام غير قابل للتجزئة ، نصفه رجل ونصفه منزل وأنا فريسته ، يطوقني تطويقا ، يحتويني في غياهبه ، يسكني داخل جدرانه الصوانية يوصد علي الابواب بالمغاليق الحديدية والعوارض ، يراقبني بعيني حارس يقظ . واه لك من بائس شقي !

الى م سيؤول أمري ؟ ماذا تراهم سيفعلون بي ؟ .

(١٩)

انى الان هادئ . لقد بلغنا من المرحلة ختامها وانتهى كل شيء . تغلبت على الصدمة الفظيعة التي خلفتها في نفسي زيارة مدير السجن لاني — واعترف بهذا — كنت ارجو وأومل . . اما الان ، والحمد لله فلم يعد لي أي أمل .

اليك جملة ما حصل قبل قليل :

ما ان اعلنت الساعة السادسة والدقيقة الثلاثين تماما — كلا انها كانت السابعة الا ربعا — حتى فتح باب غرفتي ودخل شيخ هرم ذو شعر ابيض وسترة رمادية . فك ازرار جبته عن « غفارة » (١٩) كهنوتيا ابيض اللون . كان القادم قسا ليس قس السجن ، وتلك بادرة شر .

جلس قبالتي وهو يبتسم ابتسامة ودودة واحنى راسه وشخص الى السماء او بالاحرى الى سقف الغرفة البيضوي .

وعيت ما يقصد قبل ان يقوله لي :

— يا بني انت على استعداد ؟

(١٩) من جملة الالبسة الطقسية الكنيسية يستعملها القس اثناء قيامهم بالشعائر الدينية .

اجبته بصوت واهن :

- اني لم استعد لكني حاضر .

وعلى اثر هذا ، اظلمت الدنيا في عيني واخذ العرق البارد ينضح من كل اعضائي . شعرت بان صدغي يختلجان واخذت اذناي تدويان .

وفي الوقت الذي كنت أتململ على كرسي كالنعسان ، استمر الشيخ الطيب يتكلم ، او على الاقل هذا ما خيل لي فقد رجح عندي أني أتذكر ملاحظتي شفتيه ويديه تتحركان وعينيه تومضان ، فتح الباب ثانية ، انتبهنا على أصوات المزاليج ، انا من ذهولي والقس من حديثه . دخل شخص ذو ثياب سوداء مصحوبا بمدير السجن وحياني بوقار ، كان عبوساً أشبه شيء بأبكم استوجر للسير وراء جنازة ، كانت يده ممسكة بورقة مطوية :

قال لي بابتسامة مجاملة :

- سيدي ، اني المفرض الموفود من قبل المحاكم النظامية الملكية بباريس لي الشرف ان احمل اليك رسالة من قبل المدعي العام .

استفقت من الصدمة الاولى وعادت الي جميع رباطة جأشي وأجبته :

أهو المدعي العام الذي يطلب راسي ؟ انه لشرف عظيم ان يكتب الي واملي ان موتي سينيله اعظم السرور ، اذ من المؤسف حقا التفكير في انه كان قد طلب بهذا الالحاح والشوق شيئا لا يكترث هو به ولا قيمة له عنده .

بعد ان قلت هذا استطردت بصوت حازم :

— اتله يا سيدي !

بدأ يقرأ لي صحيفة طويلة ، مصحوبة بوقفات وفواصل منغومة ملحنة عند نهاية كل سطر ، وتلجلج وعثار ما بين كل كلمة وكلمة لقد كان القرار برفض الاستيناف الذى قدمته .

بعد ان انتهى من قراءة الوثيقة ، ذات الاختام العديدة استطرد دون ان يرفع راسه عنها :

— سينفذ الحكم هذا اليوم في ساحة « كريف » وسنبدأ السير في الساعة السابعة والدقيقة الثلاثين بالضبط قاصدين سجن الكونسيرجي . فهل يتكرم سيدى العزيز بالتنازل الى مرافقتى ؟ .

بقيت عدة دقائق وانا لا أسمع شيئاً سوى ما نطق به هذا . تكلم المدير مع القس ، الذى كان قد حول عينيه الى الورقة . تطلعت الى الباب الذي بقي مواربا . . . آه ، يا للفظاعة ! في الممشى أربعة جنود ! .

أعاد المفوض سؤاله ناظراً إلي هذه المرة ، فأجبت :

— متى شئت ، أنا في خدمتك .

فخيانى وقال :

— سيكون لي شرف المجيء لاخذك بعد نصف ساعة .

ثم تركني وحيدا .

هل من سبيل إلى الفرار ، يا إلهي ؟ بالتأكيد هنالك وسيلة ما ! يجب أن أهرب ! يجب ، وفي الحال ! من الابواب ، من النوافذ ، من السقف الخشبي ، وان تمزق جسدي بالعوارض ! آه يالجهنم ! يا للشياطين ! لعنة الله ! ان النفوذ من هذا الجدار سيقتضيني بضعة أشهر لو كان لي عدد وأدوات جيدة ، وأنا ماعندى حتى ولا مسمار ، ولا ساعة واحدة من الزمن .

(٢٠)

في الكونسيرجي (٢٠)

ها أنا ذا بعد ان نقلت – كما يقول التقرير الرسمي ، والرحلة تستأهل عناء التسجيل .

كانت الساعة تعلن السابعة والدقيقة الثلاثين حين عاد مفوض الشرطة مرة اخرى ووقف بباب غرفتي وقال :

– نحن في انتظارك ياسيدي . واسفاه ، كان معه أناس آخرون .

نهضت ، وخطوت خطوة ، ولم يكن يبدو علي اني سأستطيع التقدم خطوة ثانية ، كان راسي ثقيلا جدا ، ورجلاي في غاية الوهن ؛ ومع ذلك فقد تحاملت على نفسي وتقدمت بخطى ثابتة نوعاً ما . قبل ان اغادر محبسي تزودت منه بنظرة أخيرة ، لقد أحببت هذه الغرفة . وهكذا غادرتها خالية مفتوحة ، ان ذلك مما يكسب غرفة السجن مظهرا غريبا .

على كل حال ، انها لا تبقى كذلك مدة طويلة ، كان منتظرا ان تشغل باحدهم مساء هذا اليوم حسبما قال احد السجانين : محكوم بالموت ، او

(٢٠) هو بناية تقع تحت دار العدل ، اي محاكم باريس ، كان المحكومون بالموت زمن الثورة يودعون فيه ليرسلوا فيما بعد الى المقصلة .

بدأت محكمة الجنايات تبلغه بقرار حكمها عليه في هذه الساعة . لحق بنا القس في منعطف من الممشى ؛ لقد تناول فطوره الان . شد المدير على يدى بحرارة وانا اغادر السجن ورافق حرسي الموٴلف من اربعة شرط طاعنين فى السن . وصرخ رجل في نزعه الاخير امام المستشفى :

— الوداع .

وصلنا الفناء . فصرت أستنشق الهواء النقي وهذا ما انعشني وأفادني . لم نسر طويلا في الهواء الطلق ؛ كانت عربة تجرها خيول مسرجة واقفة في الفناء الخارجي هي العربة التى اقلتنى الى هذا السجن . إنها لقريبة الشبه بركبة مستطيلة الشكل ، قسمت الى قسمين بشباك حديدى سميك الى درجة يحسب المرء انه نسج نسجا ؛ وكان لكل قسم باب ، فواحد من أمام والاخر من الخلف . وهي قذرة جداً ؛ قذرة حتى ان عربة نقل الموتى الخاصة بملجأ الفقراء والعجزة ، تعتبر عربة ملوكية أزاءها . قبل ان ادفن في هذا القبر ذى العجلتين اختلست نظرة الى الصحن ، نظرة من تلك النظرات اليائسة التي تبدو كأنها تحمل الجدران تتهاوى ، كان صحن السجن وهو ساحة صغيرة مفتوحة تطرزها الاشجار يغص بجشد من المتفرجين يفرق ذاك الذي اجتمع لمشاهدة المحكومين . أجمور عظيم بهذه السرعة .

وكمثل اليوم الذى شرعت « السلسلة » في السير ؛ كان المطر يهطل بغزارة كما هو الشأن في مثل هذه الاوقات من السنة ؛ وما زال مطر ناعم

بارد يهطل وانا اكتب ، انه مداوم على السقوط طول اليوم الذي سيستغرق مني وقتا اطول من المعتاد .

كانت المياه تمور فوق الارصفة ، والصحن مملوءاً بالوحـل والماء . لذني رؤية هذا الجمهور غائصا في الوحل .

دخلنا العربة . واحتل مفوض الشرطة وشرطي واحد القسم الامامي ، واحتللت انا والقس وشرطي ثان القسم الخلفي ، وأحدق بالعربة اربعة فرسان وهكذا — من ادخال طبيعة موقفي في الحساب — كانوا ثمانية رجال أزاء رجل واحد .

فيم انا أهم بالدخول صاحت عجوز دردبيس ذات عينين رماديتين :

— اني لا افضل رؤية هذا حتى أكثر من المحكومين بالاشغال الشاقة في احواض السفن فهمت ، انه منظر يمكن للمرء ان يستوعبه بنظرة واحدة بزمن قصـير ، وسهولة اكثر ، بنظرة واحدة ، باسرع من ومضة . انه لمحكم ومثير ، وليس ثمّ ما يشغلك عنه ففيه شخص واحد ليس إلا . في هذا المشهد من البؤس والايلام مايعادل ما في المحكومين كافة لو وضعوا معا .

سارت العربة ، وجلجلت عنـدما مرت تحت القنطرة المبنية فوق الباب الاكبر ثم انطلقت في الشارع وأوصدت أبواب « بيسيتر » الثقيلة خلفها ، شعرت بالنوم يغالبني كرجل راح في غيبوبة وما عاد يقوى عـلى الحركة او الكلام لكنه بقي مدركا أنهم يهمون بمواراته التراب .

أصغيت وأنا في غشيتي الى رنين الاجراس المعلقة فى أعناق الجياد المسرجة وهي ترن بايقاع منتظم وكانت عجلات المركبة الحديدية تقعقع حين تصطدم بحافة الطريق المرصوف ، تخرج من نقرة لتدخل فى اخرى ، ثم أرهفت سمعى الى الضجيج الذي تبعثه خبب الجياد فى كل جانب من العربة ، ثم تناهى الي فرقعة سوط الحوذى . كل ذلك كان يبدو لي أشبه بعاصفة تدور بي كالدوامة .

من ثقب ضيق في الشباك ارسلت بصري محملقا بصورة آلية في الكتابة المحفورة ذات الاحرف الكبيرة فوق المدخل الاكبر لسجن « بيستر » . « دار العجزة والشيوخ » وقلت لنفسى :

— اذاً يبدو أنه يوجد هنا بعض الاناسى الطاعنين فى السن .

وبقيت — كما يفعل المرء وهو بين التهويم والنوم ، أقلب هذا الامر في فكري ، وفجأة اختلفت المناظر من الثقب الذى كنت انظر منه باستدارة العربة وانعطافها الى الشارع العام من الطريق الفرعي ، وبدت أبراج كاتدرائية « نوتردام » وهي زرقاء معتمة في ضباب باريس داخل هذا الثقب الذى صار كاطار لها ، في تلك اللحظة تغير اتجاه النظر فى داخل فكرى وأفسحت افكاري عن بيستر محلا لافكارى الجديدة عن أبراج « نوتردام » فقلت لنفسى مبتسما ببلاهة :

— ان مجال الرؤية هو جيد جدا للناس الذين اتفق ان سيوجدوا في البرج

حيث سيرفع العلم .

يغلب على ظني ان القس بدأ يكلمني في تلك اللحظة ، تركته يفعل وانا صابر ، ما زلت اسمع صدى قرقعة العجلات ووقع سنابك الخيل وسوط الحوذي وكان أعلى الاصوات .

أصغيت الى سيل ممل من الكلمات التي هدأت خاطري كقرقعة ينبوع ماء يقذف بمائه امامي ، متغير على الدوام ، ثابت على الدوام كشجرات الدردار المفتولة النابتة على طريق لاجبة ، عندما أيقظني فجأة صوت مفوض الشرطة المتلجلج الاحش وكان جالساً في القسم الامامي قال بلهجة الرجل الذي ينوي انثرثرة :

— آه حسنا يا سيدي الاب ما وراءك من أخبار ؟

والتفت الي القس أثناء ما كان يتكلم . بيد ان القس الذي استمر يكلمني وقد منعته ضوضاء العربة من سماع المتكلم ، لم يجبه ، فاستطرد الضابط رافعا صوته ليعلو على صوت العجلات :

— قبحها الله من عربة شيطانية .

— شيطانية حقاً .

استطرد يقول .

— انها تميد بنا كما ترى ، ومن الصعب ان يسمع المرء شيئا ، ماذا كنت أقول ؟ قل لي يا سيدي الاب ماذا كنت اقول ؟ ان نعم ! اتدري ما أهم

الانباء عن باريس اليوم ؟

شاعت فى بدني قشعريرة اذ ظننت انه يعنيني بذلك .

أجاب القس الذي سمع كلام المفوض بالاخير :

- كلا لم يكن لي وقت لقراءة الصحف هـذا الصباح ، سأتصفحها مساء اليوم فعندما أكون مشغولا كهذا اليوم اعمد الى توصية البواب بحفظ صحفي لاقرأها بعد أوبتي الى المنزل .

فرد عليه مفوض الشرطة :

- اف ! لا أصدق ، لابد وانك سمعت أنباء باريس ، أنباء هذا الصباح .

كنت انا الذي تكلم بعده ، قلت :

- اراني اعرف الانباء .

تطلع الي مفوض الشرطة وقال :

انت حقا ! اذن ما رأيك فيها .

قلت له :

- لماذا انت متلهف بهذا القدر ؟

اجابني مفوض الشرطه :

- لماذا يا سيدي ؟ لكل شخص رايه السياسى . اني لاجل قدرك من ان لا تملك وجهة نظر خاصة . انا مثـلا من يحبذني اعادة تشكيل الحرس الوطني ، كنت عريقا في الفصيل ، وصدقني اني قضيت اطيب الاوقات .

قاطعته قائلاً :

- ما فكرت بان هذه هي الانباء المهمة .

- إذن ماهي ؟ ذكرت انك تعرفها .

- كنت اقصد شيئاً آخر به اليوم باريس مهتمة .

لم يفهم الغبي معنى كلامي لكن ثار فيه الفضول فقال :

- انباء اخرى غير هذه ؟ كيف توصلت اليها بحق ابليس ؟ ما هي يا سيدى العزيز ؟ اتعرفها نت يا سيدي الاب ؟ اانت اخبر بها مني ؟ ارجوك قل لي ما هي الانباء ؟ ماذا يحدث ؟ إني كما ترى ارغب في معرفة جميع الانباء لانبها الى سيدى رئيس المحكمة وهذا ما يبهجه . وقال اشياء لا تحصى من الاشاعات التي لا اصل لها .

التفت الى القس اولا ثم إلي ، لكنى لم ارد عليه إلا بهزة من عطفي . قال لي :

-- حسناً ، بماذا تفكر .

- افكر في اني لن استطع التفكير هذا المساء .

فأجاب :

- آه اهذا كل شيء . هيا هيا لا تكن خائر القلب ان السيد كاستين كان يتكلم ...

ثم قال بعد صمت :

- صحبت السيد « بابافوان » وكان لابساً قبعة من الفراء وهو يدخن سيكارا . واما عن شبان « روشيل » الايفاع فقد كانوا يتحدثون فيما بينهم فقط ، كانوا يتحدثون وكفى . . سكت برهة ثم استطرد :

- المجانين المهووسين كانوا في الظاهر يزدرون العالم كله . أما بالنظر الى ما اقترفت ايها الشاب الصغير فاني أراك كثير الهم .

فالتفت :

- شاب صغير ! انى أكبر عمرا منك . فكل ربع ساعة تمر علي تضيف الى عمري سنة واحدة التفت وحدجني ببصرى بضعة ثوان بدهشة بليدة ثم بدأ يقهقه ضاحكا ويقول :

- ماذا ، انك تمزح ، أكبر مني سناً ؟ ! لقد بلغت سن جدك .

قلت بأسى :

- إني لا أمزح .

فتح لي صندوق تبغه وقال :

- تفضل يا سيدي العزيز ، ولا تغضب ، اليك قطعة من التنباك ، لا تستاء مني .

- ماعليك بهذا ، فلن أكون في صحبتك مدة طويلة .

في الوقت الذى قدم لي صندوق تبغه من خصاص الشباك الشباك الذي يفصل بيننا مادت بنا العربة وارتجت فاهتز اهتزازاً عنيفا وسقط صندوقه

المفتوح عند قدمي العسكري ، فصرخ :

لعنة الله على الشباك .

ثم التفت الي :

– انظر . آما أنا سيء الحظ لقد ضاع تبغي .

أجبته باسما :

– اني سأخسر اكثر منك .

حاول ان يجمع تبغه وهو يغمغم بين أسنانه :

– أكثر منك ! ما أسهل هذا القول ، انه احسن تبغ فى باريس كلها . يا للمصيبة !

وجه القس اليه بضع كلمات تعزية . وما أدري أكنت منصرفا كلية الى افكاري الخاصة ، على ان هذه الكلمات رنت في أذني كأنها خاتمة النصح والعزاء التي سمعت بدايتها . وبالتدريج ازدادت المناقشة المستمرة بينهما حرارة فتركتهما يتحدثان معا فى امورهما الخاصة واستسلمت الى أفكاري .

كنت غارقا في افكاري هذه ، عندما وصلنا مدخل المدينة ، ولكن باريس بدت لي أكثر ضوضاء من المعتاد .

وقفت العربة دقيقة فخرج رجال الكمرك لفحصها لو كان ما تحتويه شاة او ثورا مقادا الى المجزرة لكلفوا صاحبها بدفع ملء كيس من الفضة ، ولكن رأسا واحدا من بني البشر ، لا ضريبة عليه ولذلك أفسح لنا

السبيل فورنا .

ما أن جزنا « المخرف » (٢١) حتى دبت الحركة في خيـل الموكب وصارت تعـدو بنا خببا فى شوارع فوبرغ وسانت مارسو ولاسيتي ذات المنعطفات الكثيرة ، كانت تتعامد وتتقاطع بعضها مع البعض الاخر كأنها دروب بيوت النمل . وتعاظمت قعقعة عجلات المركبة باحتكاكها فى ارصفة هذه الازقة الضيقة حتى ما عدت اسمع شيئا من اصوات الخارج . وعندما تطلعت من الفتحة الضيقة المربعة خيل لي ان سيل المارة قد انقطع ووقفوا جميعا ليحدجوا الموكب باعينهم ، وبدا لي ان جماعات من الصبيان كانوا يتراكضون وراءه . خيل لي ايضا انى رأيت هنا وهناك بين آن وآخر رجـلا عجوزاً دردبيساً باسمال وخلق ، وأحيانا اثنان منهم يبيعان بطائق مطبوعة كان المارة يتخاطفونها وهم يتصايحون ويزعقون بأعلى الاصوات .

دقت سـاعة القصر معلنة الثمنة والدقيقة الثلاثين فى تمام ياوغنا ساحة الكونسيرجي . إن منظر الدرج العظيم ، والكنيسة السوداء والمـداخل ذات المنظر المقبض ، كل ذلك جعلني أقشعر .

عندما وقفت العربة حسبت ان قلبي توقف عن الخفقان هو الاخر الكئيب لمست اطراف نفسي . وفتـح الباب بسرعة من البرق ، قفزت من سجني المتحرك ، ودفعت بسرعـة الى الامام سروا بي من باب ذي طاق بين صفين من الشرطة . كان قد احتشد جمهور كبير على الجانبين ورنا أسير .

(٢١)

بينما كنت اسير خلال المقصورات العامة لدار العدل ، شعرت كأني حر تقريبا خالي البال من الهم اكثر جلدى خائني تماما عندما فتحوا الابواب السفلى لمفضية الى الانفاق السرية والدهاليز التحتية والممرات الطويلة المعتمة تحت الثرى ؛ لا يسير فيها الا من يوشك ان يحكم عليه بالموت او من حكم عليه به .

كان مفوض المحكمة يرافقني ، اما القس فقد غادرني ليأتي بعد ساعتين فقد كان لديه ما يجب اداءه . اخذت الى دائرة المدير فتركني المفوض . كان موضوع تسليم وتسلم . ورجا المدير المفوض ان ينتظر هنيهة قائلا انه يسلمه لعبة ما (سجينا) لاخذه في الحال الى « بيسيتر » في المركبة العائدة ، لا شك انه الرجل الذى حكم عليه بالموت هذا اليوم ، وسينام هذا المساء على حزمة القش التي لم يكن لدى الوقت الكافي لاستلقي عليها .

قال مفوض المحكمة للمدير :

— حسن جدا ؛ سأنتظر برهة ، بامكاننا أن نكمل تقريرينا الرسميين في آن واحد سيكون ذلك جد مناسب .

(٢١) الطريق المشجر .

وانتظاراً لذلك وضعوني في غرفة صغيرة قريبة من مكتب المدير ، تركت وحيدا وأوصد الباب علي باحكام ودقة ، لم أدر بم كنت أفكر لم أدر كم أبقيت هناك ، عندما صك اذني انفجار قهقهات راعدة مفاجئة ايقظتني من شرودي الذهني .

رفعت نظري وانا ارتجف لم أعد وحيدا في هذه الغرفة ، كان معي رجل ، رجل في حدود الخامسة والخمسين متوسط القامة أشيب الشعر ، منحني الظهر ، عميق غضون الوجه ، قصير الاطراف ، في نظرات عينيه شر ، وعلى وجهه ابتسامة تهكم ، قذر رث الثياب ؛ شبه عار . كان منظرا تعافه النفس يبدو ان الباب فتح وقذف به الى الداخل ثم أوصد ثانية في غفلة مني ، فآه لو جاءني الموت هكذا ! .

حملق احدنا بالاخر عدة ثوان ثم اطلق ضحكات عالية كحفيف الموت . خفت منه وعجبت له في آن واحد ، واخيرا سألته :

- من أنت ؟

اجاب :

- يا للسؤال المضحك ! أنا « فريانش »

- « فريانش » ؟ ماذا تعني بهذا ؟

يبدو ان هذا السؤال زاد من انشراحه . قال وهو وسط قهقهة راعدة .

- معنى هذا ان القول (الجلاد) سيلعب برأسي في ستة اسابيع كما هو

يزمع ان يلعب بجسمك بعد ست ساعات . ها ! ها قد بدأت تفهم ما أقصد

شحب وجهي وقف شعر رأسي . انه المحكوم الاخر الذي ينتظر مجيئه

بعدي الى ببسيتر . خالني واصل القول :

- ماذا كنت تنتظر ؟ سأحدثك بقصتي :

« اني ابن احد الاوغاد شيّ تحز الكن « شارلوت »(٢٢) تكلفت مناه

تجريده من وبطة عنقه حين كانت السكين جد قوية بنعمة الله تعالى .

بلغت السادسة فوجدت نفسي يتيم الابوين ؛ كنت في الصيف اكنس غبار

الطرقات لعل احد الناس يرمي الي بفلس من نافذة العربات وفي الشتاء

اخوض الوحل عاري القدمين وانا انفخ في يدي المحمرتين بردا انك

لتستطيع ان ترى فخذي العاريين من ثقوب سروالي . وفي السن التاسعة

بدأت اعتمد في معيشتي على خفة يدي ، كنت بين الفينة والفينة انشل ما

في الجيوب واسرق معطفاً . وفي العاشرة صرت نشالا ، ثم تعرفت باشخاص

آخرين ، وفي سن السابعة عشرة صرت لصا اقتحمت دكانا وحطمت أقفالا

قبض علي ؛ وكنت آنذاك في سن مناسبة فارسلت للتجديف في السفن ،

كانت عقوبة الاشغال الشاقة صعبة علي . انك لتفترش الارض ولا تشرب

غير الماء وتأكل الخبز الاسود ، وتسحب سلسلة سخيفة في نهايتها كرة

معدنية لا فائدة منها تقاسي ضربات السياط مع ضربات الشمس .

هناك حلق رأسي بالموس ، وكنت فخورا بشعري الكستنائي الجميل على

كل حال قضيت مدة سجني ، خمس عشرة سنة انتهت اخيرا ! بلغت الثانية والثلاثين ، وفي احد الايام الجميلة اعطوني بطاقة التخلية مع ستة وستين فرنكا كسبتها من عملي في قاع السفن مدة خمسة عشر عاما ، اشتغل ست عشرة ساعة في اليوم ، وثلاثين يوما في الشهر واثني عشر شهرا في السنة . كل هذا لا يهم ، كنت اريد ان ارجع انسانا سويا صالحاً بهذه الفرنكات الستة والستين . وكان يوجد تحت أسمالي البالية من العزم والتصميم ما لا يوجد مثله تحت جبة الكاهن . لكن ماذا فعلت الشياطين والابالسة من الخنا في جواز سفري ! كان الجواز أصفر اللون كتبوا عليه هذه الكلمات :

(محكوم باحواض السفن أطلق سراحه !)

والواجب يفرض علي في هذه الحالة ان ابرزه أينما حللت ؛ وان اذهب به اسبوعيا الى عمدة المدينة الصغيرة التي سأسكنها جبرا ، شهادة عظيمة ! محكوم !

كان مرآي يخيف الناس ، فالاطفال يهربون من أمامي حالما يروني ويغلقون الابواب وراءهم ولم يكن أحد يكلفني بعمل . وسرعان ما أتيت على فرنكاتي الستة والستين وكان علي ان اعيش بعد ذلك . عرضت ساعدي القويين المستعدين للعمل ، عرضت ان اشتغل يوما بطوله لقاء عشرة صولديات ، ثم رضيت بخمسة ، فلم يفتح لي . فماذا افعل ؟ في يوم ما وجدت نفسي جائعا . دفعت بمرفقي الى نافذة مخبز ، قبضت على رغيف

خبز ، فقبض الخباز علي ، ولم اتبلغ بالرغيف ؛ فأرسلت الى السفن محكوما بالاشغال الشاقة مدى الحياة – بثلاثة احرف وسموها بالنار على كتفي – سأريكها اذا شئت ؛ هذا النوع من العدالة يسمى (عود الى الاجرام) ، وهكذا عدت الى السفن مرة ثانية .

عدت الى (طولون) هذه المرة ، مع الابديين . شعرت باني مدفوع دفعا الى تلمس الفرار . ولاجل تنفيذ ذلك كان علي ان ثقب ثلاثة جدران واقطع سلسلتين ؛ وليس في حوزتي من الادوات غير مسمار . هربت فاطلق مدفع الانذار ، لاننا بارديتنا الحمر اشبه بكرادلة روما اذا خرجنا حيينا باطلاق مدفع .

لكن البارود ذهب الى العصافير ، لم يكن لدي جواز سفر اصفر هذه المرة ، ولكن لا نقود لقيت عدة شركاء ممن كانوا قد قضوا مددهم او هربوا مثلي . وسألني « رأس الروؤوس » هل أرغب في الانضمام اليهم – وكلهم قطاع طرق وقتلة – فوافقت وبدأت أقتل لأعيش ، فأحيانا تكون الضحية « حامل مذراة »(٢٣) واحيانا مركبة سفر ، وأحيانا تاجر ماشية راكبا حصانا . كنا ناخذ النقود ونخلي سبيل الحيوانات نترك المركبة ونواري رجال التراب تحت الشجرة ، آخذين حذرنا الا تبرز اقدامهم ثم ندك العشب دكا شديدا حتى لاتبدو الارض منبوشة حديثا .

---

(٢٢) الجلاد . (٢٣) اي الفلاح .

وتقدمت بي السن وانا على هذه الحال أعيش بين اشجار الغاب وأنام تحت النجوم المتلألئة انتقل من غابة الى أخرى بيد اني كنت حراً سيد نفسي . ولكن لكل شيء نهاية كالراحة بعد العناء . ففي ليلة رائعة الجمال قبض علي العسس ، هرب رفاقي لكني - اكبرهم سناً - تركت بين مخالب هؤلاء. قطط المدينة العجائز بشرائطهم الذهبية المقصبة . جاؤوا بي الى هذا المكان . لقد ارتقيت كل درجة من درجات السلم إلا واحدة ، وسواء أجرمت (سرقت) او قتلت رجلا فالنتيجة هي هي من الان فصاعدا . عاملوني كمجرم عائد فليس لي إلا ان اسلم الى يد الجلاد . كانت محاكمتي قصيرة الامد الحق انى اتقدم في السن ولم اعد صالحا للمستقبل ، تزوج ابي « بالارملة » (٢٤) وانا الان اوشك ان اعتزل فى « دير الاحزان » (٢٥) والان هذه هي قصتي يا رفيقي » .

قال لي :

- ايها الرفيق يبدو انك لا تملك الشجاعة الكافية . لا تكن جبانا في مواجهة الموت ، ألاترى انها لحظة سيئة تلك التى ترتقى فيها سلم المقصلة لكنها لحظة سريعة جدا ، تمنيت لو كنت انا هناك لاريك كيفية السقوط اقسم بالف اله لو وافقوا على تقديمي الى المقصلة معك اليوم لرغبت عن تقديم استيناف

(٢٤) أي المشنقة .

(٢٥) أى أطاحت المقصلة برأسه .

آخر ، ان قسا واحدا يكفي لكلينا ، لن اهتم لو سبقتك الى التوديع انظر اني لست وغدا ، ماذا تقول ، ألا تقبل صداقتي ؟

وللمرة الثانية تقدم خطوة نحوي :

أجبته قائلاً وانا ادفعه :

— سيدي ! اني أشكرك .

فدوى صوته بقهقها لردي هذا :

— ها ها يا سيدي ! اذن فانت مركيز ! اجل مركيز !

قاطعته :

— يا رجلي الطيب اني اريد ان استجمع افكاري ، فدعني وحدي .

جعلته صرامة عبارتي يستغرق في التفكير فجأة هز رأسه الاشيب الاصلع تقريباً . ثم غرز اظافره في صدره الاشعر الذي كان عاريا تحت قميصه المفتوح .

غمغم بين اسنانه :

— آه فهمت ، رئيس السماء (القس) !

ثم قال متلعثما بعد حوالي بضعة دقائق من الصمت :

— انك مركيز ، وهذا حسن . انك تملك سترة رسمية جميلة انها ستكون ذات فائدة لك وسيأخذها (التول) فاعطنيها وسأبيعها واشتري بثمنها تنباكا .

خلعت سترتي واعطيتها له فانتابه فرح صبياني واخذ يصفق ثم لاحظ انى بقيت في قميصى وانى ارتجف بردا ، فقال :

- سيدي انت مقرور ضع هذه عليك ، ان المطر يهطل وسوف تبتل ، فضلا عن ذلك يجب على المرء ان يكون حسن الهندام في العوبة .

خلع سترته الكتانية الخشنة الرمادية ودس بكميها ذراعي بها فتركته يفعل ، ثم اتكأت على الحائط لا استطيع وصف التأثير الذى خلفه في هذا الرجل بدأ يتفحص السترة التي وهبتها له ليطلق بين الفينة والفينة هتاف الفرح :

- الجيوب في غاية الجدة ! الياقة لم يصبها التحات ! انها تسوى خمسة عشر فرنكا على اقل تقدير . أي ضربة حظ هذه! كفاية من التنباك لاسابيعى الستة !

فتح الباب ، لقد جاءوا ليأخذونا نحن الاثنين ، لياخذوني الى الغرفة التى ينتظر المحكومون بالموت ، دنو دورهم وهو لياخذوه الى « بيسيتر » احتل مكانه ضاحكا بين جماعة الحرس الذين سيقودونه خارجا وقال لهم :

- آه انظروا الى هذه ! ولا تتوهموا فقد تبادلنا سترتينا انا وهذا السيد . لاتخالوني اياه بحق ابليس ؟ ان مالم يعد يقلقني الان ، هو توفر بعض مال اشترى به تبغاً .

(٢٢)

هذا المجرم الشيخ ، اخذ مني سترتي ولم اعطها له ، تركني مشتملا بهذه الخرقة القديمة : سترته القذرة ، كيف سيكون مظهري بها ؟ .

لم ادعه ياخذ سترتي بسبب عدم اهتمامي او لرغبتي في التصدق بها ؛ كلا بل لكونه اقوى مني ولو رفضت لضربني بقبضتيه الكبيرتين .

صدقة حقاً ، كانت الافكار الشريرة تملأ رأسي ، ورغبت في خنق هذا الحرامي الشائب بكلتا يدي ثم سحقه تحت قدمي .

اصطخبت شتى مشاعر الحنق والغضب في اعماق نفسي شعرت بان قلبي سينفجر حقدا ان الموت يجعلني انسانا شريرا .

وضعوني في غرفة مابها الا اربعة جدران ، وعوارض حديد لا تحصى ، فوق النوافـذ واوصدوا علي بابا ذا اقفال كثيرة و (. . لنضرب صفحا عن كل هذا .

طلبت منهم منضدة وكرسيا وادوات كتابة فجاؤونى بها .

طلبت فراشا ، فنظر الي الديدبان مشدوها كأنه يريد ان يقول لي :

– وماحاجتك به ليت شعري ؟

وعلى كل ، فقد اتونى بطرح مطوى وفرشوه فى زاوية . لكن اقبـل معه جندي وسمر نفسه فيما سرهم ان يطلقون عليه اسم الغرفة . من الواضح انهم يخشون ان اعمد الى خنق نفسي بالمهادة .

(٢٣)

الساعة العاشرة !

واه لك يا بنيتي الشقية ! لم يبق الا ست ساعات واكون في عالم الاموات ، سأكون شيئا قذرا مرميا على بلاط المدرج البارد ، سأكون رأسا يرمونه الى جانب وجذعا يفصل الى جانب ثم يلتي بهذه الفضلات في تابوت وتحمل الرفاة الى « كلامار » .

هذا ما سيفعلون بابيك ، هؤلاء الرجال الذين لايحقدون علي ، لذين يشفقون على جميعهم ، ويستطيعون انقاذي ، هم قاتلي ؛ أتفهمين ذلك ياماري ؟ يقتلوني بكل برود ، وبصورة عادية ، عين تطرف لهم ولا جفن آه يارب العظيم .

طفلتي الصغيرة البائسة !

ابوك الذي يحبك غاية الحب ، أبوك الذي اعتاد ان يلثم عنقك الحلو الصغير الناصع البياض الذي كانت يداه تعبث دوما بخصلات شعرك الحريري ، ابوك الذي اعتاد ان يربت على وجهك المستدير الجميل ، الذي اعتاد ان يهشهشك على ركبتيه ويشبك يديه مع يديك الصغيرتين لتلاوة صلاة المساء ! من سيقوم عني بكل ذلك الان ؟ من بقي لك يمحضك الحب ؟ كل الاطفال الذين في سنك لهم آباء ماعداك ؛ كيف ستعتادين ياطفلتي في

عيد راس السنة ان تبقي بدون هدايا ولعب جميلة وحلوى وقبلات ، كيف ستعودين نفسك ايتها اليتيمة الصغيرة المنكودة ألا يكون لديك ما تاكلين وتشربين ؟ آواه لو رأت هيئة المحلفين صغيرتي الجميلة مارى ، لعلمت لماذا يتحتم عليها الا تصدر حكمها بقتل اب لطفلة فى الثالثة من عمرها .

واذا كبرت — لو عاشت فالى م سيؤول أمرها ؟ سيكون أبوها من ذكريات الباريسيين ، وسيركبها العار ، وستخجل لمجرد ذكر اسمى ، ستردرى ، ستنبذ من جراني أنا الذي احبها بكل ما في قلبي من حنان ، آه ياحبيبتي الصغيرة مارى ! أصحيح انك ستفكرين بي متفززة خجلي ؟

يالي من أشقى البائسين ، ما أعظم الذنب الذى اقترفته ؟ ما أعظم الذنب الذى سأجعل المجتمع يقترفه ! ؟

آه أصحيح اني سأموت قبل ان ينتهي هذا اليوم .

أصحيح انى انا وليس غيرى .

الهمسات التى اسمعها من الخارج ، ذلك الجمع من القوم الجذلين الذين صاروا يتجمعون فى الشكنات ، هولاء الشرطه الذين احتلوا مواضعهم المرسومة ، ذلك القس فى جبته السوداء . الرجل الاخر بيديه الحمراوين . كل ذلك يتم لاجلي انا انا الذي يزمع الموت ، انا نفسى الشخص الموجود هاهنا ، الذي يعيش ويتحرك ويتنفس ، الجالس على منضدة هى كغيرها من المناضد ، انا الذى يلمس ويشعر ، انا الذى تقوم ثيابه بعمل هذه الطيات

(٢٤)

لو عرفت فقط كيف يؤدون المهمة ؟ بأى طريقة يموت المرء هناك ، على انها فظيعة . لاتنني لا أدرى كيف تتم .

ان اسم ذلك الشيء مخيف واني لاشعر بعجزى التام في هذه اللحظة عن كتابته او التلفظ به .

ان تشكيل هذه الاحرف العشرة ، مظهرها نفسها منظرها فقط ، يثير في ذهن المرء بالتأكيد فكرة الموت ، دان دكتور الشر الذى اخترع هذا الشيء كان اسمه مكتوباً فى لوح القدر . الصورة التي تستحضرها هـذه الكلمة البشعة للذهن هى صورة غامضة مبهمة مشؤومة ، كل مقطع من الكلمة شبيه بجزء من الالة ، بقيت مكبا على تشييد وتركيب قطع هذا البنيان المخيف .

اني لاأجرؤ على القـاء اى سؤال عنها ولكن من الشناعة الا تعرف حقيقتها بالضبط ولا كيف تشتغل ، يبدو انها نوع من العتـلات يضعونك فوقها وأنت منبطح .

آه سيشيب شعري قبل ان يسقط رأسي ! .

(٢٥)

رأيتها مرة واحدة .

كنت مارا بساحة « كريف » يوما في مركبة حوالى الساعة الحادية عشر صباحاً . وعلى حين غرة وقفت بي المركبة .

كان ثم حشد من الناس . أخرجت رأسي من النافذة وكتل الناس تموج وقد ملأت الساحة والشوارع المجاورة رجالا ونساء ، بينما صعد الاطفال والصبيان على الاعمدة والعوارض وكان المرء يرى من فوق رؤوسهم نوعا من المنصة مصنوعة من خشب احمر وان ثلاثة رجال قد ارتقوها .

كان مقرر ان يعدم ذلك اليوم مجرم محكوم بالموت وانهم يركبون المقصلة .

أشحت بوجهي الى الجهة الاخرى ولم انظر اليها . سمعت امرأة كانت واقفة قرب مركبتي تقول لصبيها :

— انظر اليها ، ان السكين لاتسقط كما يجب لذلك فهم يزيتون دهن المفاصل بعقب شمعة .

ربما كان هؤلاء الناس هناك اليوم ، الان دقت الساعة الحادية عشر . انهم بلا شك يدهنون المفاصل .

آه هذه المرة لن استطيع الاشاحة بوجهي عنها فيا لتعسي !

(٢٦)

آه ، العفو عني ، العفو عني !

ربما أصـدروا عفوا عني ! ان الملك لاعداء له معي . ألا يذهب أحدهم ويجيء لي بمحامي ؟ ارسلوا بطلب محامي عـلى الفور ! اني أفضل الاشغال الشاقة ، خمس سنوات اشغال شاقة (بعد ما قيل كل شيء وتم كل شيء) او فلتكن عشرينا او فلتكن مدى الحياة مع وسم الحديد المحمي ، أبقوا على حياتي فقط

ان المحكوم بالسجن يستطيع على كل حال المشي ، المجيء والذهاب ، انه ليستطيع ان يرى الشمس .

(٢٧)

كر القس عائدا .

انه ابيض الشعر ، رؤوف القلب ، مشرق الوجه بالحنان ، هو في الحقيقة رجل خير واحسان . رأيته صباح هذا اليوم يفرغ كيس نقوده في أيدي السجناء . فكيف لا يحرك صوته العواطف ، كيف لا يوجد فيه رقه ؟ كيف كان القس لا يقوى التلفظ بشيء . يروق لخاطري وقلبي ؟ كانت افكاري في هذا الصباح شاردة فلم اسمع ما كان يقول لي وبدت كلماته من قبيل العبث الباطل إذ لم تختلف في أي تأثير . انها كانت تسقط كالمطر البارد على نافذة متجمدة .

على كل حال ، أثرت عودته في تأثيرا حسنا . قلت لنفسي انه الوحيد من بين جميع الرجال الذين يحتاطوني الان — الذي قد يكون ذا عون لي .

لقد اثار في شوقاً محرقا للخير ورغبة بكلمات العزاء لا تقاوم .

كنا جالسين : هو على كرسي وانا فوق الفراش ، قال لي :

— يا بني !

هاتان الكلمتان مسنا شغاف قلبي .

استطرد يقول :

— يا بني أأنت مؤمن بالله ؟

اجبته :

– نعم يا أبت .

– هل تؤمن بالكنيسة الرومانية الكاثوليكية الرسولية المقدسة ؟

– بطيبة خاطر ان كان هذا يسرك .

استمر يقول :

– يبدو لي يا ولدي ان لديك بعض الشكوك .

ثم بدأ يتحدث الي تكلم مدة طويلة ، قال أشياء كثيرة ، وعندما بدا انه انهى مقاله ، نهض واقفا وقال وهو ينظر الي للمرة الاولى منذ بدء خطابه :

– فلا أذهب اذن !

احتججت باني اصغيت اليه أول الامر بشوق ثم باهتمام ثم بهيام خالص .

نهضت بدوري وقلت له :

– سيدي اتركني وحدي أتوسل اليك .

فسألني :

– متى سأعود ؟

– سأعلمك بذلك .

فخرج بدون ان ينبس ببنت شفة ، يهز رأسه كأنما يقول :

– رجل كافر !

لكن لا ، فاني وان كنت قد هبطت الى الحضيض فلست بما وصفت ، والله شاهد بانى مومن به . ولكن ماذا قال لي ذلك الرجل العجوز ؟ لم يقل شيء من صميم القلب موثرا ، لا شيء رقيق لا شيء يحرك النفس لاشيء مما يخرج من قلبه يمس قلبي ، لاشيء منه الي بل بالعكس شيء مبهم لامعنى له يناسب الكل اي فرد . انه متعمل من حيث يجب ان يكون عميقا ، مملا من حيث يجب ان يكون بسيطاً نوع من موعظة عاطفية واطروحة لاهوتية ، تطرزها هنا وهناك شواهد ومقتبسات من اللاتينية باللاتينية ، شيء من سانت أوغسطين ، وربما من سانت غريغور انى لي ان أعرف ؟ ثم زيادة على ذلك فقد خلف انطباع من يقرر درساً كان قد أبداه واعاده عشرين مرة . مقالة محت من مخيلته نظرا لمعرفته اياها معرفة جيدة .

لم يرف جفناه أقل رفة ولم يعتور صوته أقل تهدج ولم تأت يده بأقل حركة .

وكيف يمكن ان يكون غير ذلك ؟

هذا القس هو راعي السجن المختص ، ووظيفته هى ادخال العزاء وبذل النصيحة تلك وسيلة عيشه والمحكومون والمرضى هم الذين يوحون له ببلاغته انه ليسمع اعترافاتهم ويساعدهم لان مركزه يقتضيه هذا العمل . لقد طعن في السن وهو يقرد الناس الى حتوفهم . لقد اصبح بتعاقب الايام

متعودا على ما يجعل غيره من الناس يرتجفون رعبا فشعره المرشوش ، بالمسحوق لم يعد يقف ، والسجن ومناظر الموت من المناظر المألوفة التي يشاهدها كل يوم .

لقد أتخم بهذه الامور ؛ وربما قسم دفتر حبيبه ؛ فصحائف منه للمحكومين بالسجن وصحائف اخرى للمحكومين بالموت . انه ايخبر في ليلة ما بوعود من يجب ان يواسيه صباح اليوم التالي ، في الزمن الفلاني والساعة الفلانية ، فيسأل ما هو ؟ أسجين أم محكوم بالموت ؟ ، فيعيد قراءة الصحيفة ثم يأتي وهذا ما يحصل : اولئك الذين يذهبون الى قلعة المحكومين في طولون ، واولئك الذين يذهبون الى ساحة كريف ، هم سواء وأشباه بالنظر اليه لا يفرق بينهم .

آوه لو استطاعوا ان يجدوا لي راعي كنيسة او قسا طاعنا بالسن ؟ أي قس ، ، أي قس يعثرون عليه ، لو دعوه من داره — اثناء ما هو يقرأ كتابه غير متوقع هذه الدعوة — قائلين له : « هناك انسان سيلاقي حتفه وواجبك ان تمزيه عليك ان تكون هناك عندما يوثقون يديه ، ويجزون شعره ، ان ترافقه مع صليبك في العربة ، ان تحميه من الجلاد ، يجب ان تهتز معه كلما اصطدمت العربة بصفاة وهو في طريقه الى ساحة كريف يجب ان تكون معه وهو يمر بين الجماهير المريعة العطشى لدمه . عليك ان تلثمه وهو على قدمي المقصلة وتبقى معه حتى يسقط رأسه وتسقط جثته هناك »

ثم يجب عليهم ان يأتوني به وقد اصطخبت فيه الاحاسيس . يقبل مرتجفاً من رأسه حتى قدميه ، فارمي بنفسي في احضانه واعتنق ركبتيه ، فيبكي ونبكي معاً ويتفوه باعذب الكلمات وأرقها ، وسأتمزى ويهدأ روعي وسينجذب اليه قلبي ويمتلك روحي فأومن بالاهه ، لكن هذا العجوز ؟ ما قيمته بالنسبة الي ؟ ما قيمتي بالنسبة له ؟ لست اكثر من واحد من جمهور البائسين التاعسين واحد من بين اشباح كثيرة رآها . وما عليه الا أن يضيف شخصاً اخر الى قائمة معدومي الحياة .

ربما كنت مخطئاً فى طرده ، انه الصالح وانا الطالح ، وأسفا ، انها ليست غلطتي فوجود المحكوم بالموت ، هو الذي أفسد كل شيء .

ها هم جاؤوا لي بطعام ، يظنون اني بحاجة اليه ، وجبة شهية منتقاة . دجاجة واشياء أخر معها . حسناً ! حاولت الاكل بيد اني لم استطع ابتلاع اول لقمة . فقد سقطت من فمي كل شيء . له طعم الصاب والعلقم في فمي .

(٢٨)

دخل علي شخص ، كان لابسا قبعته ولم يلحظ وجودي . فتح سطرة قياس واخذ يقيس ابعاد الجدران من الاعلى الى الاسفل وهو يتكلم بصوت عالي النبرات قائلا بين فترة واخرى :

- هذا حسن .

- لاخير في ذلك .

سألت الديدبان عمن يكون ، وكان يبدو انه مهندس معماري من موظفي السجن .

ازداد اهتمامه بامري فتبادل مع الحارس الذي كان يرافقه بضعة كلمات ثم حدجني بنظرة وهز رأسه غير مهتم . وواصل كلامه بصوت ثاقب وهو يقيس الابعاد .

عندما انتهى من عمله دنا مني وقال لي بصوته الحاد :

- ياصديقي سيكون هذا السجن بعد ستة أشهر احسن بكثير مما هو الان

وكان يقصد بايآته التي عملها ان يقول لي :

- لكنك لن تتمتع بهذا وهو أمر مؤسف وبدا كأنه ابتسم ابتسامة خفيفة . في تلك اللحظة خيل لي انه يداعبني ممازحا كما يداعب المرء عروساً صغيرة يوم زفافها .

لكن سجانى وهو جسندي قديم اشرطته تنم عن طول خدمته تكفل بالجواب فقال .

- سيدي ليس من العادة الكلام بصوت مرتفع في غرفة الموت .

خرج المهندس .

وانا . . بقيت هناك اشبه بواحدة من الحجارة التى كان يقيسها .

(٢٩)

وبعده حدث امر من اسخف ما يمكن !

انتهت نوبة سجاني العجوز فغادرني ، انا الاناني السمج ! لم أصافحه او أشد على يده . ثم حل محله آخر . رجل برأس فلطاح ، وأعين كأعين البقرة ووجه بليد ولولا ذلك لما انتبهت الى وجوده . كنت وليت ظهري الباب وانا جالس الى المنضدة . حاولت تبريد جبيني بيدى وجمع افكارى المضطربة .

شعرت بربتة خفيفة على كتفي جعلتني ادير رأسي . كان الحارس الجديد الذى تركت معه ولا ثالث بيننا واليك ما جرى بيننا ، بمقدار ما اذكره :

— ايها المجرم ، الست رقيق القلب ؟

أجبته : « لا »

والظاهر ان جوابي الجازم المختصر بلبله وعلى كل ، فقد استطرد متلعثما :

— ان المرء لا يكون شريرا لانه يريد الشر .

قلت له : « ولم لا ؟ ان كان هذا كل ما تريد قوله فدعني وشأني ، وإلا ما غرضك » ؟

أجاب : « استسمحك العفو ايها المجرم ، اريد ان اقول كلمتين فقط وهي : ان كان في مقدورك صنع الخير لرجل مسكين من حيث

لايكلفك شيئاً ، أفلا تفعله ؟

فهززت كتفي قائلاً : لابد وانك جئت من (شارنتون)(٢٤) . انك ياصاح اخترت أغرب وعاء لامتياز السعادة منه . من قال لك اني استطيع اسعاد البشر ؟ .

خفض صوته واكتسى وجهه بسحة من الغموض والخفاء لم تنسجم قط مع سيمائه البليدة :

— اجل ايها المجرم ، سعيد ومحظوظ ! كل هذا يمكنك عمله . اصغ الي ، اني شرطي فقير ، والخدمة صعبة والمعاش قليل وانا احب سباقات الخيل ، وهذا ما قادني الى شفا الخراب . صفوة القول صرت اشتري بطائق اليانصيب لموازنة الخسارة . على المرء ان يقوم بأي عمل ياتيه منه الكسب ، والى الان وسوء الحظ يلازمني ؛ أسحب دائما الارقام الخاسرة . حاولت الوصول الى الرابحة عبثا . اشتريت رقم ٧٦ فكان رقم ٧٧ الرابح ، حاولت مرارا وتكرارا فكنت الفريق الخاسر . صبراً قليلاً لو سمحت فقد شارفت النهاية ، هنا الان فرصة عظيمة لي . يظهر لي وأرجو العفو يا مجرم — انك ستسلم روحك هذا اليوم ، وقد ثبت يقينا ان الاموات الذين تستل أرواحهم على هذا الشكل يعرفون مقدماً الارقام الرابحة .

---

(٢٤) هو مارستان مشهور للمجانين في فرنسا يضرب به المثل فيقال « جاء من شارنتون » كما يقال « سر فلان بمرسيليا » أي انه كثير الكذب لاشتهار اهالي هذه المدينة بالكذب (المعرب) .

أفتعدني ان تتجلى لي غدا مساء مهما كانت الظروف وتعلمني الارقام الثلاثة الاولى الرابحة ؟ ما قولك؟ انى لست بالذى يخاف الاشباح فلا تخش علي من هذا ، اليك عنوانى : (ثكنات بوبين كور - الدرج أ - رقم ٢٦) وستجدني بسهولة في نهاية الممشى . ما رأيك ؟ تعال مساء هذا اليوم ان وجدته مناسبا .

ما كنت لاجيب هذا الجحش لو لم تخطر ببالي فكرة مجنونة ، فحالة القنوط الذي انا فيه تجعل المرء يتخيل انه قادر على كسر سلسلة حديد بشعرة رفيعة .

قلت ممثلا دور المسخرة باحسن ما يمكن ان يمثله مشرف على الموت :

- سأجعلك أغنى من الملك ؛ سأجعلك قارونا بشرط واحد .

فتح عينيه المتبلدتين وقال :

- أي شرط ، أي شرط ، أي شيء تريد أيها المجرم .

- سأمنحك اربعة ارقام بدل ثلاثة شريطة ان تبادلني ثيابك .

فهتف وهو يفك ازرار بذلته العسكرية :

- أجل ،، ان كان هذا ما تريد .

نهضت من كرسي وانا أراقب جميع حركاته . كان قلبي يشتد وجيبا رايت بعين الخيال هذه الابواب امام بذلة العسكرى ، ثم الى الساحة ثم الى الشارع مخلفا (دار العدل) ورائي ! .

لكنه تلفت متردداً وقال :

- آه ألأجل ان تفر هاربا ؟

ادركت ان جميع آمالي انهارت . ومع ذلك فقد قمت بآخر محاولة . . محاولة عقيمة جدا ، سخيفة جدا ! قلت له :

- اجل ، لكن ماذا يهم ، ان الحظ قد واتاك .

فأوقفني :

- آه لكن لا . ماذا ماذا ! عن ارقامي الرابحة؟ لن تكون رابحة الا اذا لقيت حتفك .

حاولت ان اجذب عنان النفس واكبح جماحها صامتا ، اشد يائسا من اي وقت ، فاقدا كل امل يراودني .

(٣٠)

اغمضت عيني ووضعت راحتي فوقها ، حاولت نسيان الحاضر في الماضي . وبينما انا أحلم ، قفزت ذكريات طفولتي وصباي وشبابي الى ذهني احداها اثر الاخرى ، رقيقة وادعة ضاحكة كجزر من الازهار في خليــج الاثام والشرور والافكار المضطربة المائجة في رأسي .

اني لأرى نفسي صبيا مرة اخرى ، تلميذ مدرسة ضاحك الثغر جذلان لاعبا راكضا مناديا رفاق المدرسة وانا فرق ممشى طويل لتلك الحديقة النامية التي قضيت في ارجائها اولى سنواتي ، كانت مقرا لاخوية دينية في الماضي تشرف بسقفها الرصاصي على قبة كنيسة « فول دي كراس » الكئيبة المنظر .

ثم رأيتني عائدا اليها بعد اربع سنوات وأنا بعد طفل لكن كثير الاحلام زاخر العواطف جياشها . هنا فتاة صغيرة في الحديقة المنفردة ؛ فتاة اسبانية صغيرة بعينيها الكبيرتين وشعرها الجميل وبشرتها السمراء الحارة وشفتيها القرمزيتين وخديها الموردين . اندلسية عمرها اربع عشر سنة كان اسمها (بيبا) .

اشارت علينا والدتانا ان نجري بعيــدا ، لكننا اخذنا نتمشي ، أشارتا علينا ان نلعب ، لكننا تحادثنا ، كنا اطفالا في عمر واحد ، أحدنا ذكر

والاخر أنثى .

لم يدم جرينا ولعبنا وشجارنا معا إلا سنة واحدة خاصمت « بيبا » على احسن تفاحة في البستان ، ضربتها لسبب عش طير ، فانفجرت باكية فقلت :

- تستأهلين !

وذهب كل منا الى امه يشكو الاخر . فوجدتانا ضاحكتين واصلحتا ذات البين .

انها الان تستند الى ذراعي وانا جد فخور كثير الاعتزاز . سرنا ببطء وتكلمنا بصوت خفيض تعمدت اسقاط منديلها ، فبادرت الى التقاطه ، وارتجفت يدانا عندما تلامستا ، كلمتني عن الطيور الصغيرة وعن الكوكب الذي يلوح لنا من بعيد ، عن الشمس الحمراء الغاربة خلف الاشجار واحيانا عن رفيقات المدرسة ، عن ثوبها وشرائطها تكلمنا عن امور بريئة واحمر وجهانا معاً خجلا .

لقد أصبحت الصبية امرأة ! كان مساء يوم صيف ونحن في ظلال اشجار الكستنا في قلب الحديقة . بعد فترة صمت من الفترات التي كانت تكثر اثناء مسيرتنا ، تخلت عن ذراعي فجأة وقالت لي :

- ألا فلننجر !

اني لأراها الان كما كانت ترتدي ثوبا أسود ، حدادا على جدتها لقد

خطر لها خاطر صبياني فاذا « بيبا » تعود « بيبيتا » ! مرة اخرى ، قالت لي
- ألا فلنجر !

وانطلقت تعدو امامي بخصرها الاهيف الرشيق الشبيه بخصر النحلة وبقدميها الدقيقتين اللتين ظلتا تضربان رداءها وترفعانه الى ما يلي الركبتين من رجليها . تبعتها وانا اعدو وكان النسيم اثناء جريها يرفع بين آن وآخر بخنقها الاسود فيتاح لي ان اختلس النظر الى ظهرها ببشرته السمراء النقية . كنت فاقد الصواب تماما ، ادركتها قرب بئر خرب فأحطت خصرها بذراعي جزاء فوزي وجعلتها تجلس على ربئية معشوشبة فلم تقاوم ، كانت تلهث وتضحك ، اما انا فقد تمسكت باهداب الوقار اخذت ارمق عينيها الدعجاوين من تحت أهدابها السوداء .

قالت لي :

- اجلس هنا ، ما زال النهار مشرقا فلنقرأ قليلا ، أعندك كتاب ؟

كان في جيبي المجلد الثاني من كتاب « رحلات ـ باللاتوني » ، فتحته اعتباطاً وجلست الى جانبها واسندت كتفها الى كتفي وبدأنا نقرأ كل واحد لنفسه بكل هدوء - الصحيفة نفسها وكانت مضطرة ان تنتظرني قبل ان اقلب الصحيفة اذ لم يكن فكري يعمل بسرعة التي يعمل تفكيرها . فتقول وتعيد القول انا ما اكاد ابدأ :

- هل انتهيت ؟

ثم احتك رأسانا معا واشتبك شعرانا وتقاربت أنفاسنا تدريجياً ، وفجأة التقت شفتانا معا .

عندما اردنا استئناف القراءة ؛ كانت الكواكب قد انتثرت في كبد السماء .

وعندما رجعنا قالت :

- آه ، يا أماه ، يا أماه ، آه لو رأيت كيف كنا نعدو !

أما أنا فلم اقل شيئا .

سألتني امي :

- يبدو الا شيء تحدثنا به ؟

كنت في جنة من جنان الفكر ، امسية سأظل اذكرها طول حياتي ، طول حياتي !

(٣١)

الان دقت الساعة ؟ لست ادرى الساعة التى اعلنتها اذ لم اسمعها بوضوح ؟ يظهر و كأن صوت ارغن يلازم سمعي ، انما هو طنين آخر الافكار .

في هذه اللحظة العصيبة عندما ضغت في ذكرياتي ، اخذت انظر الى جريمتي مستهولا ؟ اريد ان اندم اكثر فاكثر . كان ضميرى يبكتني قبل الحكم علي اكثر مما بكتني بعده ، اما عقيبه ، فلم يكن في رأسى متسع الا لفكرة الموت ، ومع ذلك فاني لراغب جدا فى الندامة . عندما احلم لحظة بحوادث حياتي ، وآتي الى سقوط السكين التي ستنهي تلك الحياة عما قريب ، تتملكني القشعريرة كأنما هو شيء جديد لي .

عهد طفولتي السعيد ، ايام شبابي المرحة ! رداء ذهبي ذيوله مغموسة في النجيم . ثم يجري بين آن واخر نهر من الدم : دمي ودم شخص اخر .

لو ذاعت قصتي هذه بتفاصيلها يوما فلن يميل المفكر بقارئها الى تصديق واقعة مثلها ، سنة رهيبة هذه السنة ، بدأت بجناية و كان ختامها حكم الموت بعد السنوات العديدة المزدانة بالعفة والسعادة . سيبدو الامر غير قابل للتصديق .

آه وآه مع ذلك ، انى لم اكن شريرا بوجود القوانين السيئة واشقياء الناس .

اواه . سأموت بعد ساعات معدودات ، يا لتعسي حين افكر باني كنت حراً في مثل هذا اليوم قبل سنة ، حراً بريئاً ، اسير ايام الخريف تحت الاشجار فوق اوراقها المتناثرة على الارض .

(٣٢)

في هذه اللحظة بالذات ، هنالك في الدور المجاورة لدار العدل وساحة كريف ، في كل باريس ان شئت الواقع ، تجد رجالا يذهبون الى مقر اشغالهم الرسمية ، يتسامرون ويتضاحكون ، رجالا يقرأون الصحف ويفكرون فى اعمالهم ، تجارا يعقدون صفقات ، صبايا يهيئن فساتينهن لحفلة رقص فى هذا المساء ، امهات يداعبن اطفالهن !

(٣٣)

اذكر في احد ايام صباي اني ذهبت قاصدا رؤية ناقوس نوتردام الاعظم فبعد ان ارتقيت الدرج الحلزوني المظلم وجاوزت المقصورة المتداعية الموصلة ما بين البرجين ، انتابني دوار لدن رأيت باريس كلها تحت قدمي ، ما ان دخلت القفص المبني بالحجر والخشب الذي علق فيه الناقوس الضخم بدقته التي تزن قنطارا .

تقدمت بحذر على الالواح المتخلخلة وشاهدت من بعيد الساعة التي بلغت شهرتها اقصاها عند اطفال باريس وبالغيها على حد سواء ، ناظرا بشيء من الخوف - الصندوق الذي يغلفها ويحيط بها بجوانبه الشديدة الانحدار وهو عند مستوى قدمي ، كنت بين آن واخر - استرق النظر الى نوتردام وساحة بارفي والى الناس ، كما يسترق الغراب الطائر نظره - على حد شائع القول - فارى الاخيرين يسيرون وهم اشبه بالنمل ، وفجأة بدئ بقرع الناقوس الاعظم ، فشاع في الفضاء رنين عميق جعل البرج الثقيل يميد وتفرت الالواح الخشبية من العرائض المثبتة على الارضية . كاد الصوت يلقي بي بعيدا وترنحت وبالكاد افلحت في انقاذ نفسي من السقوط بزال قدمي على الجوانب الشديدة الانحدار للصندوق المظلم . انبطحت رعبا على الالواح الارضية متشبثا بها بكلتا ذراعي وقد حبست تنفسي وأمسكت لساني والطنين الرهيب يدوي في اذني ، والى تحتي مباشرة ، تلك الهاوية ، تلك الهوة الفاغرة العميقة يسير فيها جمهور من الناس رائحين غادين باطمئنان وسلام .

يبدو وكأني الان في برج الناقوس مرة اخرى ، كل شيء يبدو لي وهو يدور دورانا سريعا سريعا . انه اشبه بصوت ناقوس يدق في دماغي ، يكتنفني صوته من سائر جهاتي ، لم اعد قادرا بعد الان على ادراك معنى الحياة الهادئة المطمئنة التي خلفتها ورائي ، الحياة التي يحياها الناس الاخرون وهم بعيدون جدا عن فم الهاوية الفاغر .

(٣٤)

ان دهو المدينة بناء في مظهره طيرة وشونم بسقفه الحاد الميلان وبرج ساعته الصغير ذى الشكل الغريب بواجهته البيضاء ، بطوابقه المشادة فوق اعمدته الطويلة ، بنوافذه الالف ، بدرجاته المهترئة ، بطاقيه الواحد عن اليمين والاخر عن الشمال وعلى امتداده تنداح ساحة كريف المنفرة ، بواجهة قد بليت على مرور الزمن ، بدرجة من القذارة حتى لتبدو سوداء في نور الشمس ، تتدفق الشرطة من ابوابه ، من كل منفذ فيه ولا كالسيل ايام تنفيذ احكام الموت . ويرقب المجرم وهو يساق الى المقصلة بكل نوافذه . اما ساعتها التي تنبيء بموعد التنفيذ ، فتبقى في الليل لامعة على غرة جبين واجهتها القاتمة .

(٣٥)

انها الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة عشرة .

ما أحس به في الحال الحاضر هو هذا :

« ألم لا يطاق في الرأس ، شعور بالبرد القارس في خصري ، جبيني يحترق احتراقا كلما قمت او انحنيت ، يبدو لي كأن سائلا يتحرك في رأسي فيجعل دماغي يصطدم بجهة من قحف رأسي ، اعترتني حالة تشنج عصبي فصار القلم يسقط من يدي كأنما يقذف بقوة صدمة كهربائية ؛ عيناي تحترقان كأنما هما سحابة دخان ، اشعر بآلام في سرفتي » .

ساعتان اخريان وخمسة واربعون دقيقة ، ويتم شفائي .

(٣٦)

يقولون انه شيء بسيط ، والمرء لا يلحقه الم منه ، وان النهاية ستكون لطيفة ، سهلة جدا . فآه ! لكن ما هذه عذابات الاسابيع الستة ؟ نزاع الموت الذى يمتد يوما بطوله ؟ ما هى الام ذلك اليوم الفرد بين الايام ، يمر بابطأ ما يمكن وباسرع من البرق الخاطف ؟ ما هذا سلم التباريح المؤدي الى المقصلة ؟ انها ليست شيئا فيما يبدو .

فى الظاهر انها ليست كربا وآلاما ، ليس هناك تشنجات مؤلمة حيث يعتصر الدم قطرة ، او حيث ينطفئ نور الفكر خاطرة بعد خاطرة . بعد كل ذلك ، أهم متأكدون اننا لا نتألم ، من اخبرهم ؟ اسمع احد ان راسا وقف على حافة المنصة وهو يشخب دما وصاح في الجمهور المحتشد :

— انه لا يؤلم ؟

أهنالك ميت ذبح بهذه الطريقة بعث من عالم الاموات وجاء يشكرهم بقوله

— انه اختراع مدهش فلا تهملوه ، جهاز القتل ، عظيم رائع حقا .

أفعل ذلك روبسبير ، أفعل ذلك لويس السادس عشر ؟

كلا لم يحدث شيء من هذا القبيل ، فالامر ينقضي فى اقل من ثانية ؛ هلا وضعوا انفسهم مكانه فى اللحظة التى تهوى السكين الثقيلة فتشق الجلد وتقطع العروق وتكسر الفقرات . . نصف ثانية لا غير ! نصف ثانية وينتهي الالم . . يا للفظاعة !

(٣٧)

شيء غريب ، لكني بقيت افكر « في الملاك » ، عبثا أحاول طرد هذا من فكري فثم صوت يردد في اذني :

— في هذه المدينة بالذات ، في هذه الساعة نفسها ، وليس ببعيد من هنا يوجد رجل لديه هو الآخر حرس على كل باب ؛ رجل بين الناس هو المفرد العلم . انه مثلك بفارق واحد ، هو سام بقدر ما أنت سافل ، كل حياته ساعة بعد ساعة ، مجد سؤدد وسعادة وفرح وسكر ؛ كل من حوله يحبه ويبجله ، اعلى الاصوات تنخفض بحضرته الى حد الهمس ، وأسمى الرؤوس تطأطيء امامه ، ليس فيه مما تتملاه العين غير الذهب والحرير ، انه في هذه الدقيقة قد عقد مؤتمر مع وزراء دولته حيث كل واحد منهم لايخالف له امرا او انه يفكر بصيد الغد او بحفلته المسائية الراقصة ، متأكدا بان العيد آت ، تاركا للاخرين تدبير أمر مسراته ، اجل ان هذا الرجل مخلوق من لحم ودم مثلك تماما ، في هذه اللحظة بالذات قد تتلاشى المقصلة الرهيبة . فهو قادر على اعادة الحياة اليك ، اعادة الحرية الثروة الاسرة . . بمجرد كتابة اسمه ذي الاحرف السبعة بقلمه في ذيل قصاصة من الورق او يكفي ان تمر مركبته الملكية بعربتك مصادفة . وانه لرحيم رؤوف ، او ثمة فعل خير يؤديه اجل من هذا ؟ مع ذلك فلن يحصل شيء من هذا القبيل ابدا .

(٣٨)

أرآه ، لا بأس ! يجب على المرء ان يظهر الشجاعة امام الموت . الا دعنا نفكر في هذه الخاطرة الشنيعة ونقابلها وجها لوجه غير هيابين . الا دعنا نسأل انفسنا : ماذا تعني ؟ فلتحر حقيقتها الخالصة فلننظر اليها من كل جهة وزاوية لنحل هذا اللغز المعمى لنسترق النظر الى القبر مقدما .

يخيل لي انه حالما تغمض عيناي اغماضتها الاخيرة ، سأرى نورا وهاجا ، وهوة ذات نور ساطع حيث ستجول روحي فيها هائمة الى ما لا نهاية يخيل لي بان السماء ستصير كتلة من نور وان الكواكب ستبدو فيها بقعا سوداء بدلا من شكلها الطبيعي اي رصيعات من الذهب على قطيفة سوداء — انها ستبدو خلاف ذلك : بقعا سوداء في حقل وهاج من الذهب .

ونظرا لكوني خاطئاً شقياً — فربما سأدخل حوتا قبيحاً عميقاً للغاية ، ذا جوانب مجللة بالسواد ، حيث سأهوى ، سأظل أهوى الى ما لا نهاية ؛ مشاهداً شخوصاً متحركة غريبة في الظلام الدامس .

او ربما سأجد نفسي — عندما استيقظ بعد سقوط السكين — منبطحا على سطح مستو رطب ادب زاحفا في الظلام ، متقلبا مرة بعد اخرى كالرأس المتدحرج .

يخيل لي انه سيكون ثم ريح زفون تدفعني بعيدا ، فأصطدم هنا وهناك

بروتوس متدحرجة مثلي ؟ سيكون هنا وهناك برك ومجار من سائل غريب حار . سيكون كل شيء اسود ، فترسل عيناي طرفهما فلا تريان غير السماء القاتمة ، الضاغطة بطبقة تها الكثيفة الواحدة فوق الاخرى ، وعلى مسافة بعيدة جدا ترتفع اقواس عظيمة من الدخان اشد سوادا من الظلام الضارب اطنابه ستري عيناي شرارات حمراء صغيرة - تسبح في الليل - يتضح عند اقترابها انها طيور من نار .

وسيكون الحال على هذه الوتيرة الى ابد الابدين . سيكون ايضا - في اوقات مخصوصة - اجتماع الاموات القادمين من ساحة « كريف » - اجتماع في ليالي الشتاء المظلمة في محل معين - . ستكون جمهرة من الشخوص الشاحبة اوجههم ، الملطخة جسومهم بالنجيع وأنا من بينهم . ولكن يكون ثم قمر ، وسنتكلم همسا . سيكون (بهو المدينة) هناك ايضا بواجهاته التي قرضتها الديدان بحافة سقفه الحادة الشبيهة بالموس ، ووجه ساعته الذي كان قاسيا علينا جميعا . وفي الميدان ستكون المقصلة الجهنمية منصوبة حيث سيقوم الشيطان باطاحة رأس الجلاد ، في الساعة الرابعة صباحا . وسنقوم نحن بوظيفة الجمهور المتفرج .

من المحتمل ان يكون هذا الذي سيحصل فعلا . لكن اذا بعث الموتى احياء فبأي مشكل سيبعثون ؟ ما الذي سيتركون من جسومهم ؟ اي جزء سيختارون ، من سيكون الشبح ؟ الرأس أم الجذع واحربا ! ماذا سيفعل

الموت بارواحنا ؟ ما الذي سياخذ ؟ وما الذى سيعطى ؟ اين سيضعه ، هل يستعير احيانا الاعين الحية لينظر بها الى الارض ويذرف منها الدمع باكيا ؟

علي بقس ، قس يفهم كل ذلك ! اريد قسا وصليبا الثمه .

الهي ! انها سواء دنما !

(٣٩)

طلبت منهم ان يتركوني لعلي أغفو . القيت بنفسي على الفراش ، ان تدفق الدم الى رأسي هو الذي جعلني استغرق في النوم ، انه آخر يوم لي من هذا النوع .

حلمت حلما :

« حلمت بان الوقت ليل ، خيل لي اني في غرفة مطالعتي مع صديقين لي لا اذكرهما بالضبط ، وقد غادرتنا زوجي الى غرفة النوم الملاصقة فاستغرقت في النوم هي وابنتها .

صرنا نتكلم باصوات خافتة انا وصديقاي ؛ كلاما كان يشيع فينا الرعدة ، وفجأة خيل لي انى سمعت لفظا صادرا من الغرفة الثانية ، صوتا رفيعا غريبا غامضا سمعته كما سمعه صديقاى ، انصتنا هنيهة : كان أشبه شيء بدوران مفتاح في قفل صدىء يحتاج الى دهن ، أو كرتاج يند منه صرير خافت . كان فيه شيء جعلني ارتعد واعتر نا الوجل ؛ فكرنا في ان لصوصا قد اقتحموا دارى في هذه الساعه المتأخرة من الليل . عزمنا على معرفة الحقيقة فنهضت وتناولت شمعة وتبعني الصديقان واحدا اثر الاخر ، ذهبنا الى غرفة النوم المجاورة حيث امرأتي مع طفلتها نائمتين ، ثم ولجنا غرفة الجلوس فلم

نجد شيئا غير عادى حيث الصور في اطاراتها الذهبية فوق ورق الجدار القرمزى بدا لي ان الباب بين غرفة الجلوس والطعام لم يكن في وضعه الطبيعي ، ولجنا غرفة الطعام وفتشناها ؛ وكنت اول الداخلين ، رأيت الباب المؤدى الى الدرج مغلقا كالعادة كذلك النوافذ ، ولما صرنا قريبين من الموقد لاحظت ان باب خزانة المناشف مفتوح باتجاه الجدار بحيث شكل زاوية مخيفة .

ادهشني ذلك ، ظننا ان انسانا يكمن خلف الباب ، مددت يدى اريد اغلاق الخزانة فبدا وكأنه ثابت فى محله فجذبته بقوة فطاوعني بسهولة . وكشف عن عجوز صغيرة القد يداها مرتخيتان وعيناها مسبلتان لكنها واقفة منتصبة كأنما هي بزاوية الجدار لصوقا .

كانت بشعة المنظر ، ان شعر رأسي ليقف كلما تمثلتها في فكري سألتها :

من انت ؟

فلم تجب فعاودت الكرة « من انت ؟ » فلم تجب ولم تتحرك وبقيت عيناها مسبلتين . قال صديقاي :

- من الواضح انها شريكة لاولئك الذين اقتحموا الدار بقصد السرقة ففروا عندما سمعونا قادمين لقد نجحوا في الفرار واخفت هى نفسها هنا سألتها مرة اخرى فلم تنبس بحرف ولم تتحرك ولم تفتح عينيها ، فدفعها

أحدنا فسقطت ، سقطت كالجذع الخشبي جملة واحدة أو كجثة ميت .

سويناها على رجليها وقام اثنان منا باسنادها على الجدار عموديا فلم يبدر منها بادرة على الحياة . صرخ احدنا في اذنها فظلت ساكتة كأنها صماء ، فعيل صبرنا ، وبدأ الغيظ يحل محل الوجل وقال لي احد الصديقين :

- ضع لها الشمعة تحت دقنها

قربت الذبالة المشتعلة تحت ذقنها ، ففتحت عينها نصف فتحة ، عين فارغة ! ميتة ! كانها النفس لاترى شيئا ، ابعدت اللهب عنها وقلت :

- آها ، اخيرا ! ستجيبين الان ؟ ايتها العجوز الساحرة من انت ؟

اغمضت عينيها بصورة آلية ، فقال الصديق الاخر :

- كرر ، ولتكن قوية هذه المرة ، الشمعة مرة اخرى يجب ان تحمل على الكلام حملا !

وضعت النار تحت ذقن العجوز ، وعلى حين غرة اخذت تفتح عينيها ببطء ناظرة الينا الواحد بعد لاخر ثم سقط رأسها بسرعة ، واطفأ زفيرها الجليدي الشمعة ، في تلك اللحظة شعرت بثلاثة اسنان حادة تغوص في لحم يدي في الظلام .

استيقظت وانا ارتجف ، واسبح في العرق البارد ، كان القس الصالح جالسا على حافة فراشي يقرأ في كتاب صلواته ، فسألته :

- أنمت طويلا ؟

فاجاب :

- كنت نائما قرابة ساعة ، لقد جيء اليك بطفلتك وهى تنتظرك فى الغرفة المجاورة ، لقد حلت بينهم وبين ايقاضك .

هتفت :

- آه طفلتي الصغيرة ، لقد جاؤنى بطفلتي الصغيرة

(٤٠)

كانت بريئة جميلة موردة ذات عينين نجلاوين ، انها رائعة الحسن ، البسوها ثوبا ناسبها للغاية .

تناولتها بين ذراعي ووضعتها على ركبتي ، وصرت اقبلها من شعرها .

لماذا لم تصحبها امها ؟

امها مريضة ، كذلك جدتها ، وهـذا احسن ، نظرت الي بدهشة وتركتني الاطفها واداعبها واعانقها واغمرها بالقبـلات . لكن بقيت في الوقت نفسه تختلس نظرات قلقلة الى مربيتها التى كانت تبكي فى احدى الزوايا . بالاخير صرت قادرا على مكالمتها فقلت :

— ماري صغيرتى ماري .

ضممتها بشدة الى صدرى الباكي وقد اختنق صوتى بالعبرات فندت منها صرخة صغيرة وقالت :

— آه انك يا سيدى .

ألهى ، انها لم ترني منذ سنة تقريبا ، طفلتي المنكودة ، لقد نسيتني ، نسيت وجهى وصوتي لكن ؛ من يعد يعرفني الان ، بهذه اللحية وهذه

الشباب وهذا الوجه الشاحب ، من يعرفني ؟

من الان زال من ذاكرتها الشيء الوحيد الذى كنت اريد العيش لاكونه ، ماذا ؟ لا أب بعد الان ؟ انه لحكم عليك بان لا تسمع هذه الكلمة بعد الان ، تلك الكلمة الصبيانية الناعمة العذبة التي لايستخدمها الرجال : « بابا » .

فآه ثم آه ! لو تسنى لي سماع هذه الكلمة من هاتين الشفتين مرة واحدة فقط هذا كل ما اطلبه لقاء السنوات الاربعين التي سيستلبونها مني .

قلت لها وانا اضع يديها الصغيرتين في راحتي :

— اسمعي يا مارى ، أما عدت تعرفيني ابداً ؟

نظرت الي ، بعينيها الجميلتين واجابت :

— كلا .

فاعدت السؤال :

— انظرى الي جيداً . ماذا ؟ ألا تعرفين من أكون ؟

قالت :

— نعم اعرف انك رجل .

واسفاه ، ان تحب من كل قلبك كائناً واحدا في العالم ، تحبها حبي كله ويؤتى بها الي فتنظر الي وتتفرس في وتتكلم معي ، وتجهل من أكون ؟ عاجزة عن تعزيتي ، ان تكون الوحيدة التى لا تعرف باني فى حاجة الى ذلك لانى مشرف على الموت ! سألتها :

— أليك « بابا » يا ماري ؟

فأجابت طفلتي :

— نعم يا سيدي .

— حسن ؛ واين هو ؟

رفعت عينيها الواسعتين دهشة وقالت :

— أوه ، ألم تعلم ؟ انه ميت .

وانفجرت تبكي كدت أدعها تفلت من يدي فتسقط على الارض .

هتفت :

— أميت هو ! أتعرفين يا ماري ما هو الموت حقاً ؟

فأجابت :

— نعم يا سيدي ، إنه في التراب ، وفي السماء ايضا .

واستطردت موجهة الكلام لنفسها :

— اني اصلي لأجله أصبحة ومساء على ركبتي امي .

اشمت جبينها وقلت :

— ماري ، اتلي علي صلاتك .

— لا أستطيع يا سيدي ، فالصلاة ليست للنهار . تعال الى بيتنا مساء اليوم وسأصليها لك .

كان في هذا الكفاية فاوقفتها :

- ماري ، انا « بابا » .

فصاحت « آه » ! فاستطردت :

- الا تريدين ان اكون اباك ؟

فازورت الطفلة عني .

- كلا ، فأبي كان اجمل منظرا منك بكثير .

امطرتها بالقبلات والدموع ، فخارت الافلات من ذراعي صارخة :

- لقد آلمتني بلحيتك .

أجلستها على ركبتي ثانية وعيناي تلتهمانها التهاماً ، ثم سألتها :

- ماري ، أتعرفين القراءة ؟

فاجابت :

- نعم ، اني اعرف القراءة جيدا ، لقد علمتني « ماما » قراءة رسائلي .

قلت لها وانا اشير الى ورقة كانت تدعكها يدها الصغيرة :

- حسنا جدا ، أسمعينا قراءتك شيئا ، فأحنت رأسها الجميل وقالت :

- اني اعرف قراءة الحكايات فقط .

- لاباس حاولي هيا اقرأي .

ففضت الورقة وبدأت بالتهجئة وهي توشر باصابعها .

- أ . . و . . أو . . ق . أوق . ف . . أوقف .

خطفتها من يدها ، كانت تقرأ على الحكم بموتي ؛ لقد ابتاعت سريتها

الصحيفة بفلسين . بينما كانني انا اكثر من هذا ان الكلمات لتقصر على التعبير عن شعوري اخافها عنني ، فبدأت تبكي . وفجأة قالت لي

— اعد لي ورقتي اني سألعب بها .

سلمتها لمربيتها وقلت لها

— خذيها عني .

تهاويت على كرسي حزينا قانطا . الان فليأتوا ؛ انى لا اترك شيئا ورائي بعد هذا ، لقد انقطع آخر حبال فؤادي ؛ اني مستعد لكل أمر .

(٤١)

ما ارأف القس والسجان ، خيل لي ان الدموع طفرت من عيونهما عندما علما انهم اخذوا طفلتي عني .

لقد انتهى كل شيء ، وعلي الان ان استجمع افكاري وافكر جديا بالجلاد ، بالعربة ، بالشرطة ، بالجمهور المنتظر على الجسر وفوق الارصفة . لن افكر فيما سيحل بي في ساعة لا كيف تلك التي يمكن ترصف بالرؤوس التي رأتها تسقط . الظاهر انه ما يزال عندي ساعة اخرى لترويض نفسي على ذلك كله .

(٤٢)

سيضحك الكل ، ويصفقون ويهتفون . من بين جميع هؤلاء ، رجال احرار لم يعرفوا سجانا يأتون وهم متلهفون جدا الى منظر التنفيذ ، من بين جميع الرؤوس التي تغطى الساحة سيوجد اكثر من واحد قد كتب له في لوح القدر ان يتبع رأسي الى السلة الحمراء عاجلا كان ذلك أم آجلا . اكثر من واحد ممن جاء للتطلع الى قص رأسي سيأتي دوره هو الاخر . هؤلاء الاحياء الذين ختم على مصائرهم ؛ لهم مكان معين في ساحة كريف بقعة قاتلة ؛ مركز جذب لا محيص عنه ، فخ منصوب فاغر الفم ؛ انهم يدورون ويدورون حتى يبلغوه .

(٤٣)

صغيرتي مارى !

لقد اخذوها عني لتلعب . انها لتنظر الى الجماهير من نافذة العربة وقد امحى كل شيء من فكرها عن « السيد » لعلني املك وقتا كافيا لأكتب اليها بضع صفحات ، تقرأها يوما ما – بعد مرور خمسة عشر عاما على هذا اليوم – فتنخرط في البكاء .

أجل فمن الضرورى ان اخبرها بقصتي ؛ ولماذا كان الاسم الذى خلعته عليها هو اسم دموي .

(٤٤)

قصتي

ملحوظة من الناشر :

« لم نستطع العثور على الاوراق التى دونت فيها القصة »

« المذكورة ، ربما لم يتيسر للمحكوم بالموت الوقت الكافي لكتابتها »

« كما تشير الاوراق التالية . لقد جاءته فكرة تدوينها متأخرة . »

(٤٥)

اوتيل دي فيل . فانا هنا اذن ؟ الرحلة الشقية شارفت الختام والمحل ليس ببعيد ، حيث اجتمع تحت النافذة خلق كثير من الغوغاء يتشوفون ويرقبون . عبثا أذن كان تجلدي ولم اطراف شجاعتي ، عبثا كان ارتعادي وخوفي فالأمر سواء مادام خانني فؤادي وعندما شاهدت الجذعين الحمراوين يلوحان فوق رؤوس الجماهير يتوسطهما المثلث الاسود في القمة وقد أقيما على المنصة بين زوج من أعمدة النور على الرصيف خانتني شجاعتي توسلت اليهم ان ادلي بوصية اخيرة فنقلوني الى هنا وذهبوا ليحضروا المدعي العام . اني في انتظاره ، ومهما يكن فقد كسبت وقتا قصيرا .

ها هو ذا قادم .

دقت الساعة الثالثة فجاءوا واخبروني بان الوقت قد ازف . اقشعر بدني رغم اني لم افكر بشيء ما عداه ، طوال ست ساعات . ستة اسابيع . . ستة اشهر ومع ذلك فقد أثر في كأني لم اتوقعه أو لست معه على موعد .

اخذوني وساروا بي في الممرات ، نزلوا بي درجات عدة ؛ دفعوني خلال ابواب صغيرة في الطابق الارضي ، ثم ادخلوني غرفة معتمة صغيرة محدودبة السقف مضاءة بنور ضئيل ، في هذا اليوم المطير الكثير الضباب ، وضع

لي كرسي في وسطها واشاروا علي بالجلوس فاطعت

كان بعض الاشخاص واقفين قرب الباب بحذاء الجدار الى جانب القس والشرطة و كان يوجد ايضا ثلاثة رجال : الاول وهو الاطول والاكبر ، كبير الجثة أحمر الوجه يرتدي سترة طويلة سوداء وقبعة مشاشة الاطراف ضيقة ؛ كان هو . بعينه ، كان الجلاد خادم المقصلة ، اما الباقيان فمساعداه .

ما كدت اجلس حتى زحف هذان الاثنان بخفة القطط نحوي ، وعلى حين غرة شعرت بالحديد البارد يمر خلال شعري واخذ لسانا المقص يلمسان اذني ، جز شعري على كل وتساقط على كتفي خصلا كان الجلاد ينفضه عنهما بلطف بيده الخشنة ، وكان الكل حولي يتحدثون همسا وباصوات محترفة ، اما الاصوات في الخارج فقد اخذت تتعالى في الفضاء وتدوي كهدير الامواج ، ظننته لاول وهلة النهر من انفلاق الضحكات ادركت انه الجمهور .

كان شاب في مقتبل العمر قريب من النافذة يكتب في دفتر ملحوظات فسأل احد السجانين ، هذا الذي يفعلونه ؟ فأجابه ؟

— انه تواليت المحكوم بالموت .

فعرفت انها ستخرج على الناس في صحف الغد وفجأة خلع احد المساعدين سترتي عني وامسك الاخر بكلتا يدي و كانتا متدليتين باسترخاء على جانبي وشدهما وراء ظهري وشعرت بعقد الحبل يلتف حول معصمي

المتلاصقين ببطء وفي الوقت نفسه فك الاخر ربطة عنقي ، ثم تردد لحظة امام قميصي الكتاني الابيض وهو الشيء الوحيد الذي بقي لي من الايام الخالية ، ثم بدأ يقص ياقته .

في اثناء هذه الاستعدادات الفظيعة ، وببرودة الحديد وهو يلمس عنقي ارتعد كوعي فندت مني آهة مخنوقة فارتعشت يد الجلاد وقال لي :

— سيدي ، عفوا ! هل آلمتك ؟

ان الجلادين قوم في غاية اللطف والظرف .

كان هتاف الجمهور يزداد ارتفاعا في الخارج .

قدم لي الرجل الضخم الجثة ذو الوجه المشطب بالبثور ، منديلا منقوعا في الخل لاشمه قلت بصوت جاهدت جهاد المستميت ، جهاد المستميت لاجعله ثابتاً :

— شكرا ، لاحاجة لي بذلك انى بخير .

ثم انحنى احدهم وشد وثاق رجلي معا بحبل رفيع طويل لا يسمح لي الا بخطوات قصيرة ، ثم وصل هذا الحبل بالحبل الذي يشد معصمي ، ثم طرح الرجل الضخم سترتي على ظهري وعقد كميها معا تحت ذقني . لقد انتهى بحل ما كان يجب إداؤه .

ثم جاء القس بالصليب وقال لي :

— فلنذهب يا ولدي .

امسكني المساعدان من مرفقي وأنهضاني . فسرت ، كانت خطواتي مضطربة مرتعدة كأنما في كل ساق ركبتان . في تلك اللحظة فتح مصرعا الباب الخارجي ، صرخة وحشية ! الهواء البارد ، الضياء الباهر ، باغتني من الظل . عند نهاية الممر المظلم رأيت فجأة من خلال زخات المطر آلافا من اوجه الناس وهي تزعق وتتزاحم وتتلاطم كيفما اتفق على المدارج الرئيسية للساحة ؛ وعلى اليمين بمستوى باب المدخل الرئيسي كان صف من الفرسان على ظهور الخيل ؛ لكن بسبب انخفاض الباب لم يسعني الا رؤية اقدامهم الامامية وصدورهم ، والى الامام كان رهط الشرطة شاكي السلاح بكامل عتدته الحربية وشاهدت الى الشمال ، قفا عربة اسند اليها سلم صورة بشعة اطارها فتحة باب السجن .

لهذه الدقيقة بالذات كنت استجمع كل شجاعتي خطوت ثلاثا ، ثم وقفت على عتبة باب السجن ، صرخ الجمع الحاشد :

— ها هو ! ها هو ! ها انه قادم اخيرا !

واخذ القريبون مني يصفقون لي . ان الملك الذي يتمتم بحب شعبي لا يلقى ما القاه من الحفاوة .

كانت عربة عادية ، شد اليها حصانان هزيلان ، وقد اعتلاها حوذي يرتدي بتية زرقاء ذات رقع حمراء شبيهة بالبتية التي يرتديها الفاكفاتيون جوار منطقة « بيسيتر » . وركب الرجل الضخم ذو القبعة المثلثة اولا .

فصاح الاطفال وهم متعلقون بالدرج :

- نعمت صباحا يا سيد شمشون .

ثم تبعه مساعداه . فصرخ الاطفال ثانية :

- أحسنت يا ثلاثا. !

جلس الاثنين على المصطبة الامامية وجاء دورى فصعدت بقدم راسخة نوعا ما . وقالت امرأة كانت واقفة خلف الجنود :

- ان خطاه ثابتة !

هذا المدح القاسى بث فى نفسى الشجاعة . جاء القس واخذ مكانه الى جانبي اجلست على المقعد الخلفى مستدبراً الخيل . ارتعدت لدن ادركت سر المعاملة اللطيفة . ان فيهم بعض شعور انسانى على كل .

اخذت انظر الى كل ما يحيط بي : شرطة من الامام ، شرطة من الوراء ثم الجمهور ، ثم الجمهور مرة اخرى ، ثم الجمهور ايضا . بحر من الرؤوس يلتطم في تلك الساحة كانت كوكبة من فرسان الشرطة بانتظاري عند مدخل الساحة . اعطى ضابط أمراً ، فبدأت المركبة بوكبها تتقدم الى الامام كانما تحتثها زعقات المتجمهرين .

اجتزنا الباب ، وفي اللحظة التي استدارت المركبة باتجاه « بون اوشانج » ارتجت الساحة بصيحة واحدة من الرصيف حتى السقوف ، فرددت الازقة والجسور صداها فزلزلت الارض زلزالها ، كانت حضيرة الفرسان تنتظر ،

فانضمت الى الموكب .

صرخت الاف الحناجر في وقت واحد :

- اخلعوا قبعاتكم ! اخلعوا قبعاتكم ! مثلما تفعلون للملك ؟

فضحكت ضحكة مريعة وقلت للقس :

- لهم خلع القبعات ، لي خلع الرأس .

وسارت الخيل بنا بطيئة .

كان جو الرصيف مضمخا بالعبير الزاكي ، فاليوم هو يوم سوق الزهر ؛ لكن بائعات الزهر تركن اكشاكهن للتمتع برؤيتي .

وفي الجهة المقابلة للبرج المربع الذي ينهض قائما في زاوية دار العدل ، كان يوجد بعض الحانات والمشارب وقد ازدحمت مداخلها بالمتفرجين — وجلهم نساء وقد بدوا مسرورين بامكنتهم الجيدة ، انه ليوم جم الربح لاصحاب الحانات ، كانوا يؤجرون موائد ومقاعد وتخوتا خارج الدكاكين وكلها ازدحمة بالمتفرجين هؤلاء المتاجرون بالدم البشري كانوا يصرخون بأعلى أصواتهم :

- من يريد محلا ؟

اجتاحني الغضب على الجمهور وشعرت برغبة في المناداة :

- من يريد محلي ؟

مهما يكن ، فقد سارت العربة الى الامام وفي كل خطوة كان يزحف

خلفها الجمهور كالجيش اللجب ، كنت أراه بعيني هاتين يتكفني ، راجعا لتتركز جموعه في الامكنة الاخرى التي سأمر منها .

تطلعت ونحن نجتاز « بون اوشانج » خلفي الى اليمين بمحض الصدفة ، ثم تطلعت الى الجانب الاخر من الرصيف عبر المنازل ، الى البرج الاسود المنتصب وحده والنقوش النافرة تغطيه وعلى قمته غولان جالسان في وضع جانبي سألت القس دون ان ادري لذلك سببا عن اسم البرج ، فأجاب الجلاد :

- انه سان جاك لابوشيري .

لم تبينه من الضباب ، نظرا الى المطر الابيض الذي كان يسقط رذ ذا فيخطط الجو بنسيج شبكي كخيوط العنكبوت . لم يفت ملاحظتي اي شيء مما كان يحدث حوالي ، وكل حادث بسيط يأتي وهو يجر عذابه معه ، ان الكلمات لتقصر عن وصف مشاعري .

عندما بلغنا نصف طريق « بون اوشانج » ، تجلت الساحة واسعة مزدحمة بشكل الجأنا الى التقدم باعظم ما يمكن من الصعوبة . تملكني الرعب ، كنت خائفا من الانهيار العصبي ، قليل فقط من الكبرياء ! ثم حاولت نسيان نفسي ، جربت ان أكون أعمى اصم تجاه كل ما يحدث حولي ما عدا القس الذي كنت لا أكاد اسمع كلماته من شدة الجلبة والصراخ ، اخذت الصليب ولثمته وقلت :

- ارحمني يا الله !

حاولت اضاءة نفسي في هذا الخاطر . لكن كل أرجحة من العربة الثقيلة كانت ترحني رجاً ؛ ثم شعرت فجأة ببرد قارس لا يوصف ، نقع المطر ثيابي وبلل حلدة رأسي الحليق . سألني القس :

— أترتجف من البرد يا ولدي ؟

اجبته : — نعم !

— ليس من البرد فقط وأسفاه !

أخذت بعض النسوة يتحسرن علي لصغر سني ، وعندما أشرفنا على خاتمة المطاف ، بدأت وفي استدارة فوق أفق ساحة الرومية والسمع كل هذه الاصوات كل هذه الرؤوس من النوافذ والابواب ومداخل الدكاكين ، على سواعد المصابيح واعمدتها ، هؤلاء المتفرجون النهمون القساة ؛ هذا الجمع الذي يعرفني كله ، لا أعرف منه احدا . هذا الشارع ببلاطه الحجري وبحر الرؤوس البشرية . كنت فاقد الوعي ؛ مخدرا اعمى ، ان أفظع ما في الامر هو وطأة هذه الاعين التي لا تحصى وهي تحدق فيك .

صرت أتمايل في مقعدي ذات اليمين وذات الشمال ؛ ولم أعد اهتم بشيء حتى بالقس وصليبه .

في هذا الطنين الذي يلازم اذني ؛ ما عدت اميز صياح التفجع من هتاف الشماتة والسرور من التألم ، الاصوات من الضوضاء ، كان كل ذلك يصل الى رأسي هديرا صاخبا كرجع صدى اطرقات على كاسة نحاس ، كانت

انظاري تقرأ بصورة آلية لافتات الدكاكين .

مرة واحـدة فقط حملني شعور استطلاع تائه ان ادير رأسي وانظر في الاتجاه الذي نقصده . هذا الشعور هو البقية الباقية من التحدي العقلي ، لكن الجسم أبى وظل يجري مشاولا كائنا ادركه الموت مسبقا .

شاهدت عبر النهر احد ابراج نوتردام وكان يبدو من تلك مخفيا قرينه ، انه البرج الذي كان يرفرف فوقه العلم وكان ممتلئا بعدد كبير من الناس وجدوا فيه للرؤية خير مكان .

سارت العجلة قدما مارة بدكان بعد دكان ، ولافتة بعد أخرى مكتوبة او منقوشة او مطلية ، والناس يتضاحكون ويخوضون في الاوحال . أرخيت العنان للنفس تحلق بعيدا حتى كأني في حلم ، وعلى حين غرة انقطعت سلسلة الدكاكين المتسقة صفاً في زاوية الساحة ، وبدا ان صوت المتجمهرين قد ازداد ارتفاعا وحدة وحماسة . وقفت العربة فجأة ، ووقع نظري على المقصلة تخف القس الى معونتي متمتما :

- تشجع !

جيء بالسلم ووضع خلف العربة ، فقدم القس ذراعه لي فنزلت ثم سرت خطوة ثم استدرت لاخطو ثانية لكني لم استطع . شاهدت بين عمودي النور شيئاً قبيحاً فظيعاً .

وأحر قلباه ! انه الواقع .

وقفت وانا اترنح كأنما بعد صفعة ثم صحت صيحة واهنة :

- اريد ان ادلي باخر رغباتي .

فجاؤوا بي الى هذا المكان .

طلبت منهم ان يدعوني ادون آخر رغباتي ، فأطلقوا يدي من الوثاق والكن الحبل بقي هنا منتظرا اما الباقي . . فهو تحت ! .

(٤٦)

حاكم صلح او مدير شرطة او حاكم لا ادرى ما هي صفته — أقبل الان سألته عن العفو الذي طلبته متوسلا اليه ويداي مضمومتان وانا جاث على ركبتي أزحف عليهما ، سألني بابتسامة كانت القاضية :

— أهذا ما تريد قوله لي ؟

فأعدت القول « عفوي عفوى ؟ او باسم الرحمة اعطوني خمس دقائق اخرى ! » .

من يدرى ربما سيأتي العفو . انه لفظيع جدا ان اموت هكذا فى شرخ الشباب . قد ياتى العفو في آخر لحظة كما حدث للكثير من امثال هذه قبلا ، ومن هو اخلق بالعفو مني ؟ هذا الجلاد الشاحب الوجه ها هو يدنو من الحاكم ويخبره بأن التنفيذ يجب ان يتم في الساعة المرسومة وها انها أوشكت وانه المسؤول من كل تاخير فضلا عن ان السماء تمطر وهناك خطر تطرق الصدأ الى الالة .

آه ، الرحمة دقيقة أخرى ؛ أنتظروا العفو ! او سأدافع عن نفسى ؛ سأنهش من يقترب منى نهشا .

انكفأ القاضى والجلاد الى الوراء . اني الان وحدي ، وحدي مع شرطيين .

تعسا لهم من أناس اشرار باصوات ، تلك الشبيهة باصوات الضباع .
من يدري ؟ ربما تسنى لي الفرار ، ربما نجوت . آه لو جاءني العفو ، ليس مستحيلا ان لا أنال عفوا ألا تبا لهم من اوغاد شقاة

يخيل لي أني أسمعهم وهم يرتقون الدرجات .

الساعة الرابعة

جاء في طبعة ١٨٨١ الفرنسية أن المخطوطة الاصلية للكتاب ، صدرت وفي حاشية الصفحة الاولى منها هذه العبارة « الثلاثاء ١٤ تشرين الاول سنة ١٨٢٨ » كما جاء في ذيل آخر صفحة « ليلة ٢٥/٢٦ كانون الاول سنة ١٨٢٨ الساعة الثالثة صباحاً »

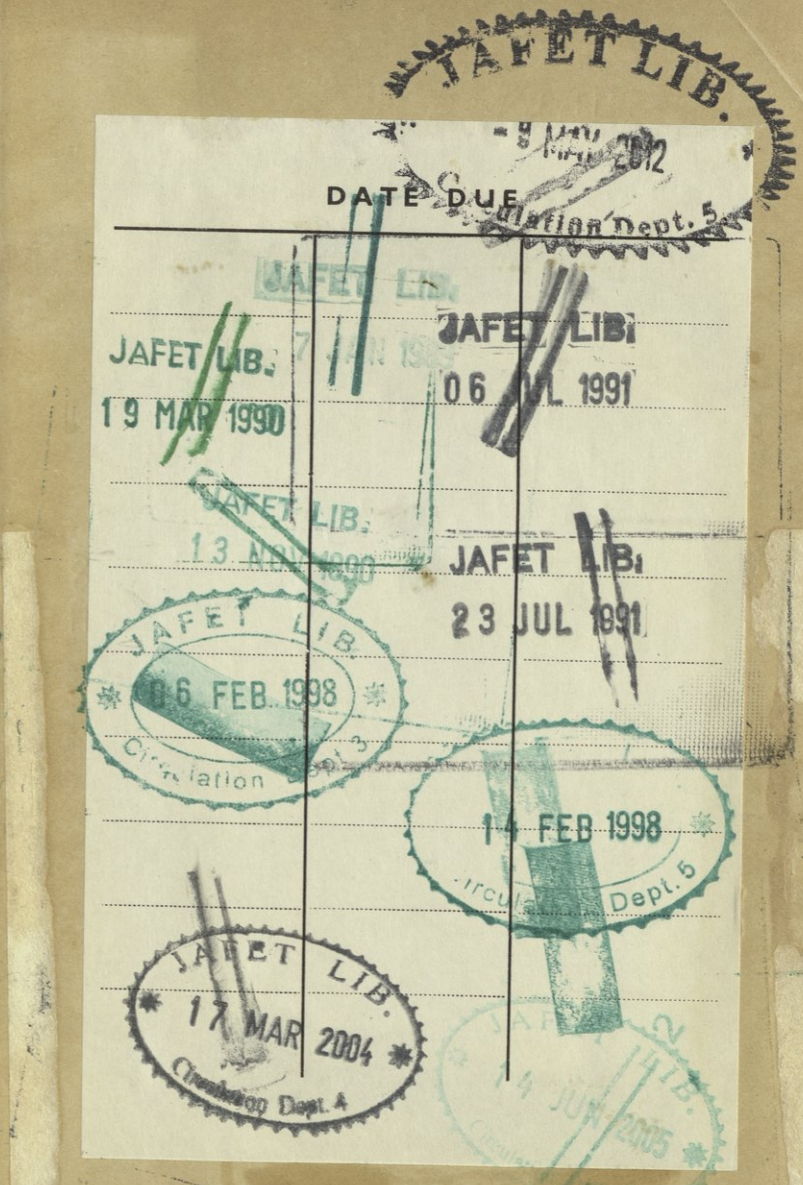
JAFET LIB.
DATE DUE
JAFET LIB.
19 MAR 1990
JAFET LIB.
06 JUL 1991
JAFET LIB.
23 JUL 1991
JAFET LIB.
06 FEB 1998
Circulation
14 FEB 1998
JAFET LIB.
17 MAR 2004
Circulation Dept. A

فتح الله، جرجس
آخر يوم لمحكوم بالموت
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01032003